الفصل الثالث

فتوح الإسلام

وجاء الإسلام فجمع شتيت العرب ووحد قواهم وأمدهم بروح من لدنه ، فى حين دب الضعف إلى الإمبراطوريتين : الفارسية والبيزنطية من استمرار حروبهما وفداحة ضرائبهما والتنازع على عرشيهما ، وضاق بهما نصارى الشرق الأدنى ووجدوا فى المسلمين مخرجاً فحمى بنو طيئ المعبر لهم فى وقعة الجسر ، وأنجدهم بنو النمير ، وقاتل بنو تغلب إلى جانبهم فى وقعة البويب ، وصالحهم أساقفة دمشق والقدس والإسكندرية من دون البيزنطيين ، فسقطت ممالك عظيمة الشأن رحبة المساحات وافرة الغنى عريقة الفن والأدب والعلم فى أيدى المسلمين العرب . ثم فى أيدى الذين اعتنقوا الإسلام من مختلف البلدان والقوميات واللغات بعد أن اتحدوا فى الإسلام ، وتعلموا العربية لفهم آيات قرآنه الكريم والحديث والفقه ، واتجهوا إلى مكة فى صلواتهم وحجيجهم ، فكان هذا التلاقى بين الشرق وبين الغرب بالإسلام ، أو بالجزية على من لم يسلم — هو الأول من نوعه فى التاريخ .

١ — الإمبراطورية الفارسية :

غزا العرب بالإسلام أطراف العراق ، وكانت تحت الحكم الفارسى ، فيسر لهم اللخميون فتح الحيرة (٦٣٣) ، وساروا فى ركابهم لقتال الفرس ، فهزمهم الفرس ، فى وقعة الجسر (٦٣٤) ، وانتقم العرب لهزيمتهم فى القادسية (٦٣٧) ، وبلغوا المدائن (٦٣٧) ، وأسسوا على شط العرب مدينة البصرة (٦٣٧) ، وبالقرب من الحيرة مدينة الكوفة (٦٣٨) ، ثم سقطت فى أيديهم خوزستان (٦٤٠) والموصل (٦٤١) ونهاوند (٦٤١) ، ومناطق الساحل من بلوخستان (٦٤٣) واصطخر أعظم مدن فارس (٦٤٩) ، فأدالوا الإمبراطورية الفارسية ، وجعلوها جزءاً من الدولة الإسلامية قسموه إلى ولايات تابعة لهم ، ولقبوا الفرس بالموالى ، ورجعوا من المدائن وقد امتلأت أيديهم بالغنائم حتى إن سعداً نقل أبوابها وبنى بها قصره فى الكوفة على الطراز الإمبراطورى ، وتشبه به الكثيرون .

٢ – الشرق الأقصى :

وواصل عمال الخلافة الإسلامية فتوحهم ، فاستولوا على : خراسان (٦٧١) ونهر جيحون (٦٧٤) وبلخ (٧٠٥) وبخارى (٧٠٩) والسند ، وأسفل وادى الأندس وأرض الدلتا منه ، وسمرقند وفرغانه وخوارزم (٧١٢) وحيدر أباد وملقان (٧١٣) وجورجيا (٧٢٢ – ٧٣٣) وكاشغر (٧٤٠) وطخارستان (٧٤٩) وطشقند (٧٥١) وغيرهما . وقد أنزل الفاتحون – المسلمين فى أصقاعها لنشر الإسلام بين أهلها ، وجاءوا منها بزراعة البرتقال وقصب السكر وصناعته وتكريره ، وصناعة الورق التى نشروها فى بغداد (٧٩٤) وفى أسبانيا (٩٥٠) وفى صقلية (١١٠٢) .

ولم يقتصر فتح هذه الأمصار على العرب والعاملين لهم فحسب ، أو تكن صلاتها بالشرق الأدنى حديثة : فقد كان بين سكانها خليط من السومريين والحثيين والسوريين هاجروا إلى وادى الأندس الخصيب منذ الألف الثانى (ق . م) ، ثم غزاها الإسكندر (٣٢٧ ق . م) وفى ركابه تجار صيدا ، ونزح إليها (فى القرنين الأول والثانى للميلاد) جموع من اليونان والسوريين والعراقيين ، كما كان للدين البوذى على مذهبيه : مهايانا ، وهانايانا أثره فى الشرق الادنى .

انتشر الأول فى معظم آسيا الشمالية ، ونزل دعاته بأرمينيا والقوقاز وتدمر وأنطاكية والإسكندرية ، وناصرت جت وهى إحدى قبائل الهند العرب على الفرس ، وأقام على بن أبى طالب من بعضها حراساً على خزائن المسلمين فى البصرة ، واستعان بهم معاوية على البيزنطيين .

وهناك مليبار ، وهى على ساحل بحر العرب فى غرب جنوبى الهند . وقد قصدها التجار الكلدان والعرب واليهود والسريان واليونان والرومان ، وقيل : إن القديس توما قصد الهند ، وبنى الكنائس فى ثمانية من بلدانها[1] . وبلغ مليبار (٥٢ م) ، وتحول إلى جلابور حيث اغتيل ، وله فيها قبر عظيم ينسبه بعضهم إلى ولى من المسلمين يدعى تماماً ، ومازال النصارى والمسلمون يزورونه حتى اليوم ولا يفرقون .

ولما دخل سكان اليمن وحضرموت فى الإسلام (٦٣٠) ، وكانوا يتاجرون بحاصلات السند ومليبار وسيلان وجاوه والصين وغيرها – وصلت الدعوة الإسلامية على أيديهم إليها ،

---

(١) Philips, Indian Antiquary. v. XXXII, p. 15-160-245.

وأول من استوطن مليبار من العرب : شرف بن مالك ، ومالك بن دينار ، ومالك بن حبيب بعياله ، فدعوا إلى الإسلام ، وبنوا المساجد والمعاهد (٧٠١)[٢] ، واستقرت جماعة من تجار العرب بجزيرة سيلان (حوالى ٧٠٠) ، وأقام عشرة آلاف مسلم من سيراف وعمان والبصرة وبغداد (منذ أواخر القرن التاسع الميلادى) فى سيمور وعرفوا بالبياصرة .

غير أن فتح الهند لم يأت المسلمين إلا على يد محمود الغزنوى (٩٩٧ – ١٠٣٠) ؛ فقد غزاها من دويلته غزنه فى شرق أفغانستان سبع عشرة غزوة أحرق فى خلالها معابدها ، وأفرغ خزائنها وحمل كنوزها ، وباع أسراه منها رقيقاً ؛ ووسع رقعة مُلكه على حسابها ، فعد أغنى ملك عرفه التاريخ .

ثم استولى الغوريون – وهم قبيلة تركية من أفغانستان – على دلهى (١١٨٦) ، فخربوا معابدها واستصفوا أموالها ، ونزلوا بشمالى الهند ثلاثة قرون ، وظلوا على صلات بالشرق العربى ، فأقطع الملك غياث الدين طفلق أحد حفدة الخليفة المستنصر عندما فر من بغداد – مدينة سيرى ووهب له قصراً وأموالاً طائلة ؛ كما أغدق على ابن بطوطة ، وولاه قضاء دلهى ، ثم أسفره إلى الصين .

وبلغ كاشغر أطراف الصين (٧١٤ – ٧١٥) ، فحطم الأصنام ، وابتنى جامعاً ، وأنزل فيها المسلمين ، وفتح طريق التجارة إليها ، فاستورد العرب منها الورق والخز والحرير ، وأخذوا عنها الإبرة الممغنطة والمربعات السحرية التى اشتهر بها ثابت ابن قرة ، ثم توسعوا فى تجارتهم بفضل جاليتهم ، وقد أربت على أربعة آلاف نسمة ، وأسفر كاشغر إلى ملك الصين لتأمينهم عليها (٧١٦) ، وتعددت السفارات بين الصين وبين دمشق فى خلافة الوليد بن عبد الملك ، وعمر بن عبد العزيز وهشام ، ثم تحولت إلى بغداد أيام الخلافة العباسية ، فاستنجد ملك الصين سونسرغ – بالعباسيين على الثائر شى جول (٧٦٢) ، وتتابعت وفود المسلمين إلى الصين فبلغت ٧٦ وفداً (٧١٦ – ١٢٠٧) ، كما أنفذ بطريرك بغداد المبشرين إليها ، وما العمود المرفوع فى بيان فو (٧٨١) إلا تذكاراً لجهود ٦٧ منهم . وقد زارها التاجر سليمان العراق ، وسجل رحلته أحد المؤرخين (٨٥١) ، فكانت أقدم وصف عربى لبلاد الصين ، وقبل رحلة ماركو بولو بنحو ٢٥٠ عاماً .

---

(٢) رحلة الملوك ، ص٩ .

٣ – الإمبراطورية البيزنطية :

وغزا العرب الشام – وكانت تحت حكم البيزنطيين ، ويطلق العرب عليهم الروم – وفاجئوا الغساسنة فى يوم فصحهم (٦٣٤) وارتدوا عنها . ثم ضربوا الحصار عليها نصف عام واطأ فى أواخره منصور بن سرجون ، وكان قائماً على بيت المال أسقف دمشق على تسليمها ، فاستسلمت (٦٣٥) ، وأصبح عهد خالد لأهلها نموذجاً لما قطعه من عهود للمدن التى فتحها . وانتصر العرب على تيودور شقيق الإمبراطور هرقل الأول – وقد تخلى الأرمن عنه مع أنه منهم ، وكانوا نصف جنده ، ودعا أحد ثائريهم العرب إلى دخول أرمينيا فغزوها (٦٤٠) وفتحوها (٦٥٢) – نصراً مؤزراً فى وقعة اليرموك (٦٣٦) ، وانفض جبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة بجماعته من حوله ، وانكسر البيزنطيون كسرتهم الفاصلة فى أجنادين (٦٣٦) فسلم بطريركهم سوفرونيوس الخليفة عمر القدس (٦٣٨) على ضمان حرية النصارى فى عبادتهم وحماية أديرتهم وكنائسهم .

وتابع العرب زحفهم ، فاحتلوا العريش (٦٣٩) ، وفتحوا مصر (٦٤٠ – ٦٤٢) ، وحاصروا الإسكندرية سنة سلمها بعدها المقوقس بطريرك الأقباط – وكان اليعاقبة فى مصر قد قاسوا الأمرين من اضطهاد بيزنطية – على مثل الشروط التى استسلمت بها القدس ، فاستقرت مصر ولاية تابعة للخلافة فى المدينة ودمشق وبغداد ، ثم استقلت بالخلافة مدة ، ثم ضمها العثمانيون إلى استانبول .

وأدرك خلفاء المسلمين بعد فتح الشام وفلسطين ومصر – أن لا سبيل إلى الدفاع عن سواحلهم إلا بعمارة بحرية ، فكلف معاوية اللبنانيين بناء أسطول ، وجعل قواده وملاحيه منهم ، وضمه إلى الأسطول المصرى ، فهزم بهما الأساطيل البيزنطية وغزا قبرص (٦٤٩) وأرواد (٦٥٠) ثم فتحها (٦٥٢ – ٦٥٥) ، وباع بقايا معادن تمثال أرواد الشهير (٦٥٦) وحاول غزو صقلية (٦٥٢) ، ثم صالح قسطنطين الثانى على جزية (٦٥٨) حتى إذا استتب له الأمر رفض دفعها ، فسير البيزنطيون جماعة من الثوار النصارى عرفوا بالمردة ، فاكتسحوا الثغور وتطرق بعضهم إلى لبنان (٦٦٦) ، واستمرت الحروب بين المسلمين وبين البيزنطيين طوال سنوات فحاصر الأسطول الإسلامى القسطنطينية (٦٧٣ – ٦٧٨) ، ثم ردهم عنها (٧١٧ – ٧١٨) الإمبراطور ليو الأيصورى – وهو سورى الأصل من أسرة وضيعة كانت تسكن مرعش ، ويتقن العربية كاليونانية – واستعاد البيزنطيون قبرص (٧٤٦) والأناضول

(٧٧٨) ثم ضرب الأسطول الإسلامى قبرص (٨٠٥) وكريت (٨٠٦) ورودس (٨٠٧)، وفتح كريت منفيو إسبانيا (٨٢٥) وسقطت عمورية مواطن الأسرة البيزنطية الحاكمة فى أيدى المسلمين (٨٣٨)، ثم استولى البيزنطيون على دمياط فى أيام المتوكل (٨٤٧ – ٨٦٠) وكريت (٩٦١) وبعلبك (٩٦٤ – ١٠٨٤) وطرطوس (٩٦٥) وقبرص (٩٦٨)، وأغاروا على حلب وأنطاكية والرها (٩٧٤) ودمشق وبيروت (٩٧٦).

* * *

لقد اصطنع العرب فى صدر الإسلام نظم البلدان التى تم لهم فتوحها لحسن تنظيمها على الرغم من اضمحلال مجتمعاتها، فأخذوا بالطرق البيزنطية فى سوريا وفلسطين ومصر، وبأساليب الساسانيين فى العراق وفارس مبقين على لغاتها ونقدها وموظفيها، ما خلا العراق الذى فتح عنوة، فأطلق عمر يده فيه، وعدا المناصب ذات الصبغة السياسية والعسكرية.

ولما قامت الخلافة الأموية (٦٦٠ – ٧٥٠) تعصبت للعرب عنصراً ولغة وأدباً، وجعلت قاعدتها دمشق على حدود باديتهم، واعتمد معاوية فى توطيد عرشه على السوريين فكان منهم ميسون إحدى زوجاته، ومنصور ابن سرجون أمين ماله، ثم ابنه وحفيده القديس يوحنا الدمشقى، وابن أثال طبيبه، والأخطل شاعره، وما لبثت الخلافة الأموية أن أصبحت وريثة الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية أكثر منها حكومة عربية. فنظمت الجيش والأسطول على غرارهما، وأخذت عنهما إخلاف الأبناء والأقارب، وإحاطة الخليفة بمظاهر الأبهة، وتوفير النعيم فى جلب المياه وتخطيط الحدائق وتشييد القصور، وإنفاق الأموال على الكساء والطعام والشراب انتجاعاً للملاذ بعد طول جفاف وجهاد وتقشف فى عهد الرسول وخلفائه الراشدين.

ثم تعربت الدولة على أيام عبد الملك فى لغة الدواوين، وإنشاء البريد، وضرب الدينار الإسلامى على غرار الدينار البيزنطى (٦٩٣) وإقامة الوليد بن عبد الملك الجامع الأموى مقام كنيسة القديس يوحنا (٧٠٥) باستقدام المهندسين ومهرة الصناع من مصر والقسطنطينية وفارس وشمالى أفريقيا، فجاء الجامع آية فى تصميمه وتنسيقه وتزيينه.

٤ – شمالى أفريقيا :

وحمل العرب على شمالى أفريقيا وواتتهم الفرصة فيه، إذ كان معظم سكانه قد انقسموا فى عقيدتهم إلى شرقيين وغربيين، والطريق إليه ممهداً بوسع العرب الانتقال من طرابلس إلى

طنجة فى ظلال الزيتون ، فسقطت فى أيديهم برقة (٦٤١) وطرابلس (٦٤٢) ، وبلغ عبد الله بن أبى سرج قرطاجنة (٦٤٧) ودمقلة (٦٥٢) حيث أقام فيها مسجداً ، وعقد مع أهلها معاهدة تجارية ، إلا أن فتح المغرب استغرق ستين سنة لقربها من صقلية واعتصام سكانها البربر بجبالهم ، ولم يفت ذلك من عضد الخلفاء ، فأنفذ معاوية عقبة بن نافع الفهرى عامل برقة ، فانتصر بمعاونة البربر على الروم ، وأسس بالقرب من تونس مدينة القيروان ، وشيد بها مسجد سيدى عقبة (٦٧٠) ، ولكن البربر كادوا له وفتكوا بمعظم جنده (٦٨٣) ، فلما ولى الخلافة عبد الملك بن مروان ولى حسان بن النعمان على المغرب ، ففتح تونس وتغلب على البربر وأجلى الروم عن المغرب (٦٩٣ – ٦٩٨)

ثم ثار البربر بقيادة امرأة تلقب بالكاهنة ، فقضوا على جيش حسان وردوه إلى برقة ، فأمده عبد الملك بجيش مكنه من القضاء على قوة الكاهنة وإخضاع البربر واعتناقهم الإسلام . وظل من المغرب مراكش فتحها موسى بن نصير عامل الخليفة الوليد بن عبد الملك (٧٠٨) ، وأرسل إليه من أسرى شمالى أفريقيا البالغ عددهم ثلثمائة ألف – خمسَهم[٣] ، ثم وصل بجيوشه إلى المحيط الأطلسى ، ولم يمتنع عليه سوى مدينة سبتة ، وكان يتولاها أمير تابع لدولة القوط بإسبانيا ، ثم توالى على أفريقيا : الأدارسة فى مراكش (٧٨٨ – ٩٨٥) والأغالبة فى تونس (٨٠١ – ٩٠٩) والمرابطون من البربر فى مراكش (١٠٥٦ – ١١٤٧) والموحدون من البربر (١١٣٠ – ١٢٦٩) .

٥ – غربى أفريقيا :

اشتهرت غانة بعدالتها وثروتها ورخائها ، فتوافد المسلمون من شمالى أفريقيا عليها واستوطنوها تجاراً وموظفين فى بلاط سوننكى ، ثم شيدوا مدينة إسلامية على أميال منها . فلما اعتنقت الإسلام قبيلتان من البربر : لمنونة وجودلة ، من جيران غانة فى الشمال تحالفتا على سوننكى لنشر الدعوة .

وفى مطلع القرن الحادى عشر نزل عند قبائل لمنونة بين مراكش وبين سنغال عبد الله بن يس ، وأسس فى جزيرة صغيرة رباطاً ، فعرف أتباعه بالمرابطين ، وقد عاهدوه على الجهاد فى سبيل الإسلام ، فغزا بعضهم مراكش ، وأنشأ فيها دولة المرابطين ، واستولى الآخرون على غانة (١٠٧٦) ، فاعتنقت الإسلام قبائل ساراكولا ، وبلغ عدد مساجد المدينة وحدها اثنى

---

(٣) المقرى ، نفح الطيب ، جـ١ ، ص١٤٨ .

عشر مسجداً . فلما تم للمرابطين فتح غانة عاد معظمهم إلى صحرائهم ، ثم شغلوا بفتوحهم فى شمالى أفريقيا والأندلس عنها ، فاستعادها ملوك السوننكيين (١٠٨٧) ، ثم ضم سوما نجورو عظيم أباطرة سوسو غانة إلى بلاده (١٢٠٣) بعض الوقت ، فهجرت طوائف المسلمين غانة إلى بلدة والاتا فى السودان الغربى ، وأنشأت لها فيها مركزاً تجارياً .

وبين بلدة والاتا فى الشمال وبين تمبكتو فى الشرق قامت مملكة غينيا ، وقد اعتنق الإسلام ملكها وكثير من رعاياه (١٢٠٤) .

وأسس سوندیا تاكيتا خليفة أمير قبائل الماندانج الذى اعتنق الإسلام – إمبراطورية مالى ، وتذكرها المصادر العربية ببلاد التكرور– من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس أضعفتها الغزوات والثورات وتقاسم الولاة حتى القرن السابع عشر فقضى عليها حتى بعثت أخيراً .

وتأسست دولة سنغاى على ضفاف النيجر الأوسط (٣٠٠) ، وحولها رجل ليبى إلى ملكية (٦٧٩) ، واعتنق زاكاسى أحد حفدته الإسلام (١٠٠٩) ، وجعل مقره فى جوجو ، ثم أخضعها ملك مالى ، واستعادها على كيلون ، وأسس فيها أسرة سونى ، ووسع سنى على بن محمد دان (١٤٦٤) حدودها ، فضمت ولايات غانة القديمة ، وغزا تمبكتو ، وأذن للبرتغال بإنشاء مركز للتجارة فى وادان (١٤٦٨) ، وثار على ابنه (١٤٩٢) أحد قواده محمد بن أبى بكر الهادى ، وأسس أسرة ملكية جديدة ، فأسقطه ابنه موسى (١٥٢٨) ، ثم اختلف هو وإخوته العديدون على العرش ، وطمع فيه المراكشيون ، واستولوا عليه (١٥٩١) ، ثم انقسمت سنغاى إلى إمارات عملت على استقلال مراكش .

وقد كانت تمبكتو (١٥٢٦) حاضره سنغاى ومركز الدعوة الإسلامية . فيها مسجدان جامعان : مسجد سيدى يحى ، ومسجد سنكورى . ومكتبات خاصة تشتمل على بعض المخطوطات العربية من أشهرها : تاريخ السودان ، لعبد الرحمن السعدى .

ولم تخضع مملكة برنو لسلطان سنغاى ، واتخذ أهلوها كانم – وهى شمال بحيرة تشاد – مقراً لملكهم ، واعتنق أحد سلاطينها الإسلام وتسمى باسم عين محمد بن جبل بن عبد الله . وقد ذكر المقريزى أنه كان يحكمها عام ١٠٨٦ . وتوفى بمصر فى طريقه إلى الحج ، واتسع سلطان حكامها بعد اعتناقهم الإسلام ، ووسعوا رقعة ملكهم حتى اصطدموا هم وجيرانهم ، ثم اختلفوا فيما بينهم ، فقضى على استقلالهم .

٦ – الأندلس :

وفيما كان موسى بن نصير يستأذن الخليفة الوليد بن عبد الملك فى فتح الأندلس – وقد أغراه بها يوليان صاحب سبتة – أنفذ مولى له يدعى طارق بن زياد عامل طنجة وهو من البربر فى سبعة آلاف مقاتل من جماعته (٧١١) ، فجاز بهم فى مراكب قدمها لهم يوليان – مضيق جبل طارق إلى الأندلس ، وفتح قرطاجنة الجديدة وأطراف الجزيرة حتى إذا بلغته الأمداد من شمالى أفريقيا حمل على رودريك – مغتصب العرش – ويطلق العرب عليه لذريق ، وكسره فى وقعة شريش (٧١١) ، وشجعه غرق الملك وغدر أعوانه به وعلى رأسهم الأسقف أبامس ، والخلاف المستحكم بين القوط الغربيين وبين الإسبان الرومانيين على التوغل فى البلاد ، فانطلق يستولى على غرناطة وصلمنكة وقرطبة ومالقة (٧١١) فلما فتح نصف الأندلس حسده موسى بن نصير ولحق به (٧١١) ، فى عشرة آلاف مقاتل من العرب وأهل الشام وثمانية آلاف من البربر احتل بهم أشبيليه (٧١٢) وماردة (١٧٣) ولقى طارقاً فى أشبيليه فضربه بالسوط لعصيانه واستعاد منه مال الفيء وذخائر الملوك ، ثم صالحه وأقره على مقدمته فانقض على طليطلة عاصمة القوط وفتحها عنوة (٧١٤)

ولما شارفت جيوش المسلمين جبال البرانس خطر لموسى اجتيازها لغزو جنوبى أوربا وبلوغ دمشق من القسطنطينية ، إلا أن الخليفة استدعاه إليه ، فخرج من الأندلس بعد أن استخلف ابنه عبد العزيز على أشبيلية ورجع ومولاه طارق إلى الشام بثلاثين ألف أسير[٤] فيهم ٤٠٠ أمير من القوط ، على رءوسهم التيجان . . يتبعهم عدد لا يحصى من الغلمان والرقيق حاملين مقادير عظيمة من الغنائم[٥] . وبينهم ثلاثون ألف عذراء من بنات ملوك القوط وأعيانهم[٦] ، والكثير من الأسلاب والكنوز والذخائر التى انتزعوها من قصور الأندلس وكنائسها وقد وجدوا فى طليطلة ذخائر منها سبعون تاجاً من الذهب . . وألف سيف بجوهر ملكى . . ومن الدرر والياقوت أكيال وأوساق[٧] ودخل الموكب دمشق ، فبهرها (٧١٥) ، ثم أنفذ سليمان خليفة الوليد من اغتال عبد العزيز فى أشبيليه (٧١٦) ، وجاءه برأسه ، فدفعه إلى أبيه موسى بن

---

(٤) المقرى ، نفح الطيب ، جـ١ ، ص١٤٤ .

(٥) ابن عذارى ، البيان المغرب عن تاريخ المغرب ، جـ ٢ ، ص ٢١ .

(٦) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٤ ، ص٤٤٨ .

(٧) الإدريسى ، نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق .

نصير ، وسامه من العذاب ألواناً ، حتى شوهد فى آخر أيامه مستعطياً فى قرية نائية من أعمال الحجاز[٨] .

وتعاقب على الأندلس :

(ا) الولاة (٧٣٢ – ٧٥٥) قضى العرب ذلك العصر فى حروب مع الإسبان وفى خصومات مع البربر ، وفى منازعات بين قبائل العرب نفسها .

(ب) الدولة الأموية : أنشأها عبد الرحمن الملقب بالداخل (٧٥٥ – ٧٨٨) وجعل من قرطبة عاصمة ، وجعل بلاطه فى بهاء بلاط لذريق ، واختط مدينة الرصافة ، وباشر بناء المسجد الجامع فيها (٧٨٥ – ٧٨٦) وكان الفاتحون قد اجتزءوا لعبادتهم نصف كاتدرائية القديس منصور – على الطراز الأموى مرفوعاً على ثلثمائة وخمسين عموداً من المرمر منوراً بتسعة آلاف مصباح ، وأنشأ الطرق والمعابر ، وشجع الزراعة والاقتصاد ، وشيد المدارس فأتاح للإسبان تعلم العربية لغة الدولة والتثقف بثقافتها . ولكنه تنكر للعلم ، فقضى على شعيا بن شعيا ، وأحرق الفقهاء فى عهده كتب خليل بن عبد الملك .

هشام بن عبد الرحمن (٧٨٨ – ٧٩٦) استسلم إلى فقهاء المالكية المتزمتين ، فأثار الفتن عليه : كفتنة الإسبان بقرطبة ، ووقعة الحفرة فى طليطلة ، وهياج الربضى .

الحكم بن هشام الأول (٧٩٦ – ٨٢٢) أسخط الفقهاء عليه لكف أيديهم عن تصريف الأمور ؛ فاندلعت الثورة فى قرطبة (٨٠٥) وطليطلة (٨١٤) ، فأغرق الربضى بالدماء ، وصلب الكثيرين ، ونفى عشرين ألفاً إلى فاس وخمسة عشر ألفاً إلى الإسكندرية ، فذهبوا إلى كريت ، واستعادوها من البيزنطيين (٨٢٥) .

عبد الرحمن الثانى (٨٢٢ – ٨٥٢) أول من بدّل حياة البلاط من خشونة إلى ترف ، وقمع ثورة المسيحيين واليهود فى طليطلة ، ثم غلبه على أمره : أمرأة وخصى وفقية ومغن ؛ فنفى يحيى بن الغزال الذى أسفره إلى ملك النورمان والدانمرك (٨٤٥) لهجائه مغنيه زرياب ، وأمر بصلب شيخ من الباطنية إكراماً لفقيهه يحيى بن يحيى . وقتل : الكاهن برفكتوس (٨٥٠) والراهب إسحق . والفتاة لورا ، والراهبة مارى (٨٥١) .

محمد بن عبد الرحمن (٨٥٢ – ٨٨٦) استعان بالفقهاء على إرهاب الثائرين من رعاياه النصارى ، فأعدم أسقف قرطبة (٨٥٩) ، وبشيوخ القبائل على الخارجين عليه من

---

(٨) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص٢٦ .

المستعربين ، كبنى قسى ، وعبد الرحمن بن مروان الجلقى ، وعمر بن حفصون ؛ فكن شيوخ القبائل لأنفسهم من نواحيهم ، ثم انقلبوا على ابنه الخليفة المنذر (٨٨٦ – ٨٨٨) فسمه أخوه عبد الله وحل محله .

عبد الله (٨٨٨ – ٩١٢) نازعه شيوخ القبائل السلطان ، وارتد ابن حفصون إلى النصرانية (٨٩٩) .

عبد الرحمن الناصر (٩١٢ – ٩٦١) أول من تلقب بلقب أمير المؤمنين ، (٩٢٩) وقد أخضع العرب لسلطانه ، وقضى على عمر بن حفصون ، وأرهب ممالك النصارى ، وأحاط نفسه بحرس من الصقالبة ، واتخذ حسداى بن شبروط طبيباً ومشرفاً على بيت المال ، وتبادل هو وأوربا السفارات ، وكلف بالعمارة ، فابتنى مدينة الزهراء (٩٣٦ – ٩٦١) ، فاشتملت على مساجد وحمامات وقصر قائم على ٤٣٠٠ عمود بعضها من خرائب قرطاجنة ، فيه ٤٠٠ غرفة ومقصورة ، وفى وسط قاعته جوهرة أهداها إليه الإمبراطور ليو البيزنطى[٩] ؛ كما عنى بالزراعة والصناعة والتجارة ، فقارب دخله ٦,٢٤٥,٠٠٠ دينار ما عدا أخماس الغنائم[١٠] ، وشجع الآداب والعلوم والفنون ، وأجزل للمترجمين من اليونانية واللاتينية ، وأسس جامعةً فى المسجد الجامع فبلغت قرطبة الذروة[١١] ، وألفت مع بغداد والقسطنطينية المراكز الثقافية العالمية يوم ذاك .

الحكم الثانى (٩٦١ – ٩٧٦) ولى حسداى بن شبروط الوزارة والمنصور قيادة الجيوش ، وحمل ممالك النصارى المجاورة على طلب الصلح (٩٦٢ – ٩٧٠) ، وقضى على الفاطميين فى مراكش (٩٧٢) ، وأتم بناء مدينة الزهراء ، ووسع نطاق المسجد الجامع وزينه بالفسيفساء التى أهداها إليه إمبراطور القسطنطينية ، وأنفذ الرسل إلى الشرق الأدنى يستنسخون له الكتب ، فأربت مكتبة قرطبة على ٤٠٠ ألف مجلد ، وأرسل إلى أبى الفرج الأصبهانى ألفى دينار لقاء نسخة من كتاب الأغانى قبل ظهوره فى العراق ؛ كما فعل مع القاضى أبى بكر الأبهرى فى شرحه مختصر ابن الحكم ؛ وقصد جامعة قرطبة فى عهده الطلاب من أوربا وأفريقيا وآسيا ، وبلغ عدد تلاميذ قرطبة بين خمسة آلاف وستة آلاف[١٢] .

---

(٩) ابن عذارى ، البيان المغرب عن تاريخ المغرب ، جـ٢ ، ص٢٤٧ .

(١٠) المقرى ، نفح الطيب ، جـ١ ، ص١٣٦ .

(١١) Encycl. de l'Islam, T1, p. 306

(١٢) ابن بشكوال ، الصلة ، جـ١ ، ص٣٥٤ .

هشام بن الحكم (٩٧٦ – ١٠٠٩) خلف أباه على العرش ، وعمره اثنتا عشرة سنة ، فتولت الحكم باسمه أمه يساعدها فيه المنصور (٩٧٧ – ١٠٠٢) بسمارك القرن العاشر[١٣] فأحل البربر محل الصقالبة المستعربين ، وأخضع بهم برشلونة (٩٨٥) ، وحجر على هشام ، وشيد مدينة الزاهرة، وتلقب بلقب الخلافة (٩٩٢) ، واستولى على ليون وذبح أهلها وعلى شنت ياقب (٩٩٧) ، ودمر ضريح قديسها ، وأرغم أسراه على حمل أبواب كنيستها وأجراسها فى موكب نصره بقرطبة ، ثم جعل الأندلسيون تلك الأجراس مشاعل ينيرون بها منازلهم . وشغف المنصور بالعلم ، فمنح صاعد البغدادى خمسة آلاف دينار على كتابه النصوص[١٤] ، وتقرب إلى العلماء بإحراق مكتبة الحكم الثانى ، فلم يغفر له[١٥] ، وتوفى (١٠٠٢) وهو عائد من حملته الثانية والخمسين التى غزا فيها قشتالة ، ودمر أديرتها وخرب حقولها .

عبد الملك المظفر (١٠٠٢ – ١٠٠٨) خلف أباه المنصور ، وأنزل بالمسيحيين هزائم عدة ، ثم ائتمر به أخوه عبد الرحمن فمات مسموماً ، ولما ولاه هشام عهده قتله الأمويون ، وخلصوا هشاماً ، وبايعوا ابن عمه محمداً المهدى ، فهدم المدينة الزاهرة [١٦] وزرع الأزهار فى جماجم أعدائه ، ثم اغتيل (١٠١٠) .

(جـ) ملوك الطوائف (١٠١٣ – ١٠٨٦) ، وأعقب الثورة على أولاد المنصور الفتنة الكبرى ، فقضت على الخلافة الأموية ، واقتسم الأندلسَ البربر والمولدون والعرب :

فولى غرناطة بنو زيرى (١٠١٢ – ١٠٩٠) ، ومالقة بنو حمود (١٠١٦ – ١٠٥٧) ، وسرقسطة بنو هود (١٠١٩ – ١٠٣٠) ، وبلنسية بنو عامر (١٠٢١ – ١٠٦٥) ، وبطليموس بنو الأفطس (١٠٢٢ – ١٠٩٢) ، وأشبيلية بنو عباد (١٠٢٣ – ١٠٩١) ، وقرطبة بنو جهور (١٠٣١ – ١٠٧٠) ، وطليطلة بنو ذى نون (١٠٣٥ – ١٠٨٥) ، والمرية بنو صمادح (١٠٤٤ – ١٠٩١) إلخ وفى ذلك يقول ابن خلدون :

« إن دولة بنى أمية لما فسدت عصبيتها من العرب استولى ملوك الطوائف على أمرها ، واقتسموا خطتها ، وتنافسوا فيما بينهم ؛ واستظهروا على أمرهم بالموالى والمصطنعين . . . اقتداء

---

(١٣) دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد ٣ ، ص٤٣ .

(١٤) الضبى ، بغية الملتمس ، ص٢٥٥ .

(١٥) المقرى ، نفح الطيب ، جـ١ ، ص١٣٦ .

(١٦) النويرى ، جـ١ ، ص٧٤ .

بالدولة فى آخر أمرها » (١٧) ، ولكنهم عجزوا عن صد هجمات الإسبان ، فاستعادوا صملنكة (١٠٥٥) ، وهزم الفونسو السادس ملك قشتالة (١٠٧٢ – ١١٠٩) المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية (١٠٨٣) ، فدخل فى طاعته وزوجه إحدى بناته ، واستولى ألفونسو على طليطلة (١٠٨٥) ، وولى ملوك الطوائف بعضهم على بعض .

(د) دولة المرابطين (١٠٨٧ – ١١٤٥) ورأى الفقهاء الاستعانة بالمرابطين على الإسبان ، فتوجه وفد من القضاة إلى مراكش ، فاستجاب لهم يوسف بن تاشفين ، وعبر إلى الأندلس ، ومكن للمعتمد بانتصاره على ألفونسو السادس فى وقعة الزلاقة (١٠٨٦) ، ثم أراد الأندلس لنفسه ، فخلع ملوك الطوائف ، ونفى المعتمد ووزيره إلى مراكش ؛ وضرب النقود باسمه ، وهدم كنيسة المستعربين فى غرناطة (١٠٩٩) ، وخلفه ابنه على (١١٠٦ – ١١٤٣) فأجلى النصارى إلى مراكش (١١١٨) ، ثم أعمل السيف فى رقاب مستعربى غرناطة (١١٢٦) ، ولكنه عجز هو ومن خلفه عن صد هجمات ملوك إسبانيا والبرتغال : فتوج ألفونسو السابع ملك قشتالة إمبراطوراً (١١٣٥) ، وبلغ فى توغله قرطبة (١١٤٨) ، وانتزع ألفونسو الأول ملكُ البرتغال لشبونة من حكامها (١١٤٧) ، فأصاب المرابطين ضعف ملوك الطوائف وفسادهم وكسادهم .

(هـ) دولة الموحدين (١١٤٥ – ١٢٢٥) ولما قضى الموحدون على المرابطين فى الجزائر (١١٥٢) وفى تونس (١١٥٨) وفى طرابلس (١١٦٠) استنجدهم ابن قسى المرتولى على الإسبان ، فهزموا ألفونسو الثامن فى وقعة الأرك (١١٩٥) ، وانتصر عليهم فى وقعة العقاب (١٢١٢) ، ثم عقد صلحاً مع المسلمين ؛ ليحمى نفسه من غدر المسيحيين . وجمع فرديناند الثالث (١٢١٧ – ١٢٥٢) بين قشتالة (١٢١٧) وبين ليون (١٢٣٠) ، واستعاد قرطبة وحول مسجدها الجامع إلى كنيسة (١٢٣٦) وبلنسية (١٢٣٨) ومرسيه (١٢٣٩) وأشبيلية (١٢٤٨) ، فاتخذها عاصمة وقصرها مسكناً ، ثم قادش (١٢٥٠) ، ووقف عند غرناطة .

(و) مملكة غرناطة (١٢٣٢ – ١٤٩٢) وصمد بنو الأحمر للإسبان قرنين ونصف القرن من الزمن ، فأقام محمد الأول (١٢٤٨ – ١٢٧٢) قصبة الحمراء ، وبنى برج الطليعة ، ووطد خلفه ابنه محمد الثانى (١٢٧٢ – ١٣٠٢) سلطانه باستنجاده ببنى مرين ، وبنى محمد الثالث (١٣٠٢ – ١٣٠٩) قصراً بالحمراء والمسجد الجامع بالقصر ، ووقف عليه الحمام بإزائه ، وأنشأ يوسف أبو الحجاج (١٣٣٤ – ١٣٥٤) جامعة غرناطة ، وابتنى ابنه محمد

(١٧) ابن خلدون ، المقدمة ، ص١٥٥ .

الخامس (١٣٥٤ – ١٣٩١) القصور السلطانية بالحمراء ، وتضم ثلاث مجموعات وهى من أجمل وأنفس ما خلفه العرب من بدائع الآثار .

وخلف محمد الخامس ملوكٌ ضعاف قامت بينهم الفتن فى حين توحدت فرنسا تحت حكم لويس الحادى عشر ، وانجلترا على عهد هنرى السابع ، واعترفت ألمانيا بإمبراطور واحد ، وتزوج الملك فرديناند الخامس إيزابيلا (١٤٦٩) ، فجمعا بين ملكيهما ، واسترجعا غرناطة (١٤٩٢) ، ووقعا معاهدة ذات خمس وخمسين مادة تؤمن المسلمين على النفس والأهل والمال وإقامة شريعتهم على ما كانت[١٨] فما ارتعوا بالمعاهدة غير سبع سنوات ضيق الأساقفة عليهم بعدها – وقد أحفظهم تفريق الفاتحين نصف أموال القتلى والفارين على المسلمين ، ومصادرة أملاك المعابد وكنوزها ، وتنصيب الأساقفة وعزلهم ، وإلزامهم الصمت على نقد الفقهاء ، وتغريب المهزومين ، وغير ذلك – فرجع ملوك إسبانيا إلى محكمة التفتيش التى عرفوها (١٢٣٢) نقلاً عن ألمانيا (١١٩٤) وفرنسا (١٢٢٦) وإيطاليا (١٢٢٨) لمعاقبة الضالين من النصارى وسلامة ممالكهم ، فاستباحت المسلمين تعذيباً وإحراق كتب (وتشريداً) ما عدا مَن فتن عن دينه أو خفى أمره عليها . ومن متخلفى العرب فى الأندلس من يعرفون اليوم باسم المركيز الداما ، والمدور ، والكونت دوكافيا إلخ . . . وقد بلغ بعضهم الوزارة ورئاستها[١٩] فجلوا فى فترات (١٤٩٢ – ١٤٩٦ – ١٥١٤ – ١٥٨١ – ١٦٠٩) ، وانضم إلى بعضهم المهاجرون من البرتغال وقد تشتت شملهم ، فمنهم : من قصد إيطاليا ، ومنهم من نزل بجنوبى فرنسا ، ومنهم من حمل إلى شمالى أفريقيا ، فنزلوا بتطوان وأرباضها ، ومنها أغاروا على البرتغاليين برًّا وبحراً فى سبتة والقصر الصغير وطنجة ، وأسروا منهم ثلاثة آلاف أسير ونيفًا ، وأقام غيرهم بتونس فى حيين : شارع الأندلس وحومة الأندلس ؛ وكانوا يعلقون مفاتيح منازلهم فى قرطبة وأشبيلية وغرناطة على جدران بيوتهم فى شمالى أفريقيا ، ويشاركون أهلها فى تطوير العلم والصناعة والتجارة فيها ، ثم لزح فريق منهم إلى الإسكندرية .

٧ – البرتغال :

والبرتغال – وكانت تعرف قديماً بلوشيتانيا ويلتقى على أرضها الأفريقيون كالليبيين والبربر بالآريين والسلت الأوربيين – فى شمال شرق الجزيرة الأيبرية (إسبانيا) ، وقد أصابها

---

(١٨) أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر ، ص٤٩ .

(١٩) حاضر العالم الإسلامى لستودارد ، ترجمة الأستاذ نويهض وتعليق الأمير شكيب أرسلان ، ج٢ ، ص٢ .

ما أصاب الجزيرة ، فاستولى عليها الفينيقيون والقرطاجنيون واليونان والرومان ، وفى عهد أغسطس أحد أباطرة هؤلاء شيدت مدينة ماردة على شرفه وجعلها عاصمة البلاد .

وبعد أن فتح موسى بن نصير أشبيلية مشى على ماردة وأحل شلب محلها قاعدة الغرب الأندلسى . وفى عهد الولاة نزل بنو وزير من اليمن بشلب وباجَة ، وأقطع غيرهم من العرب والبربر يابرة ولشبونه وشنتمرين ، ثم أعيد توزيعها على السوريين والأردنيين والمصريين عندما انتقلوا إليها .

ولما قامت الدولة الأموية أخمدت ثورة باجة ، وكانت تدعو للعباسيين ، وردت قرصان الشمال عن لشبونة والقصر ، وقضت على الأمراء والمولدين ، وكانوا من الإسبان القوط قد اعتنقوا الإسلام ، وطمعوا فى حكم إماراتهم ، ثم اجتاحها المنصور فى حملاته على غاليسيا وسانتياغو ، واستعاد المرابطون من ألفونسو السادس ملك ليون وقشتالة بعد هزيمته فى وقعة الزلاقة (١٠٨٦) شنتمرين ولشبونة وشنتمرة .

وتزوج هنرى البورغندى تيريزا بنت ألفونسو السادس ، فأقامه كونتاً على البرتغال (١٠٩٣ – ١١١٢) وخلفه – بعد انشقاق بين النبلاء – ابنه ألفونسو الأول (١١١٢ – ١١٨٥) ، فهزم المرابطين فى وقعة الأرك (١١٣٩) ، وأفاد من ثورة ابن قسى عليهم ، ومرور الصليبيين به لا سترجاع شنتمرين ثم لشبونة (١١٤٧) استرجاع جيرار سان بور (الذى لا يرهب الموت) أحد قواده يابرة وباجة من للموحدين فيما بعد . وخلفه ابنه شانجة الأول (١١٨٥ – ١٢١١) ، فحمل بالصليبيين الألمان والإنجليز وأهل الفلاندر على شلب ، فاستسلمت لهم عطشاً ، وخرج قائدها عيسى بن أبى حافظ بن على ومن بقى معه منها مؤمنين على أرواحهم (١١٨٩) ، ثم استعادها المنصور بعد استعادته القصر وبالملا وألمادا . وعاون ألفونسو الثانى (١٢١١ – ١٢٢٣) الإسبان على دحر الموحدين (١٢١٢) ، واستجاب لرغبة أسقف لشبونة فى استرجاع القصر بمؤازرة إحدى الحملات الصليبية بعد معركة حامية (١٢١٧) ، وقنع شانجه الثالث (١٢٢٣ – ١٢٤٥) بما ورثه . ولم يقنع ألفونسو الثالث (١٢٤٥ – ١٢٧٩) ، فاسترجع من ابن محفوظ الغرب كله وضمه إلى البرتغال (١٢٤٩) ، وأنشأ الملك دينيس (١٢٧٩ – ١٣٢٥) جامعة لشبونة (١٢٩٠) ، وقرب علماء العرب وأفاد من علومهم .

ثم ارتقى عميد منظمة دافيس العسكرية عرش البرتغال باسم جان الأول (١٣٨٥) ، وفى عهد أسرته فتح البرتغاليون سبتة (١٤١٥) طمعاً فى إنشاء إمبراطورية فيما وراء البحار وتسيير

السفن حول شاطئ أفريقيا الغربي وفك حصار المسلمين عن الحبشة . ومن سبتة انطلقوا إلى القصر الصغير وطنجة ، وانبثوا فى ثغور الشاطئ الغربى ، وأقاموا عليه القلاع ، وبلغوا منه جزر المديرا (١٤١٨) وأسور (١٤٢٧) وسنغاى على ضفاف النيجر (١٤٦٨) ورأس الرجاء الصالح (١٤٨٦) ثم الهند .

٨ – فرنسا :

لئن رد الخليفة الوليد موسى بن نصير عن جبال البرانس – لقد أذن خلفاؤه للحر بن عبد الرحمن باختراقها ؛ فاجتاح جنوبى فرنسا ؛ ثم عبد الرحمن الغافقى – وهو من أشهر ولاة الأندلس – فى فتحها جميعاً ، فعبر بجيوشه جبال البرانس ، واستولى السمح بن مالك على ناربون ، وجعل منها قاعدة ، ولم يحل مصرعه أمام تولوز (٧٢١) بين العرب وبين اكتساحهم : كاراكسون ، ونيم ، وليون ، وماكون ، وأوتن ، وغاليسيا ، وأعالى الرون واللوار [٢٠] : وبلغوا أتون وأفينيون ، وفتحوا بوردو عنوة [٢١] وأشعلوا النار فى معابدها وفى الكنيسة القائمة خارج أسوار بواتيه ، ثم زحفوا شمالاً حتى جاوزوا مدينة تور . فلما استفحل أمرهم صادر شارل مارتل أمراء الكنائس ، وألب عليهم جيشاً خليطاً من الفرنسيين والألمان والبورغنديين ، فدحرهم بعد معركة حامية دامت سبعة أيام فى سهل بين تور وبواتييه ، وقد عرفت بوقعة بواتييه (٧٣٢) وقتل الغافقى ، وانسحبت جيوشه فى جنح الظلام .

ويقول ليبون وقد اشتهر بالتعصب على الفرنجة فى كتابه حضارة العرب : إن مارتل لم يكن بحيث وضعه المؤرخون ، فهو لم يقو إلا على دحر العرب فى وقعة بواتييه ، ولكنه عجز عن إجلائهم عما كانوا قد احتلوا من المدن ، أو إيقاف زحفهم على : جرينوبل ، ونيس ، وفريجوى ، ومرسيليا ؛ فأقطعهم حاكمها ولاية بروفنس (٧٣٧ – ٧٥٩) وبلوغهم أرل وسان تروبيز (٨٨٩) وانبثاثهم فى الفاله والسوس ، ومتز (٩٣٥) ونزولهم بجبال البيرنه والألب فى جنوبى فرنسا خلال قرنين متواليين .

ويقول دى فيشر [٢٢] : إن جماعة من العرب أغارت على فراكسينتوم (٨٨٨) فى

---

(٢٠) Le Bon, La Civil. des Arabes, p. 320.

(٢١) Sedillot, Hist. des Arabes v. 2, p. 203.

(٢٢) B. de Fischer, Contribution à la connaissance des relations Suisses-Egyptiennes, Lisbonne, 1956.

خليج سان تروبيز واحتلتها ثم انطلقت منها إلى بورغونيا وأرل ، ونيس ؛ وعبرت الألب ناحية إيطاليا (٩٠٦) ، وغزت دير نوفاليزه ومدينة أكوى ، ثم تصدّت للحجاج الإنجليز المتوافدين عبر هذه المناطق على رومة (٩٢١) – وأنفذ أبو القاسم محمد القائد الفاطمى أسطولاً (٩٣٤) إلى ساحل فرنسا الجنوبى ، فغزاه ، ثم احتل جنوى مدة – وبلغت إقليم خور ومنطقة الجريزون (٩٣٦) واحتلت ممر سان برنار الكبير ، وهدمت دير سان موريتز (٩٤٠) ، وأغارت على نيو شاتل وأفانش وسانت غال (على الحدود الألمانية السويسرية) وسارجاس وتوجنبورج وابنتسل ؛ مما حمل هونج دى بروفانس على أن يطلب إلى المغيرين حماية ممرات الألب الرئيسية له ، ودفع برانجه منافسه على عرش إيطاليا عنها (٩٤٢) .

وهكذا تمكنت تلك الجماعات من العرب من بعض ممرات جبال الألب ، فلما أسرت سان مايول وهو راهب دير كولونى (٩٧٣) ، وطالبت بفدية كبيرة لفك أسره – أغضبت النصارى ، فتحالفوا أمراء وشعوباً على العرب لإجلائهم عن الألب ، فطردهم جيوم دى بروفانس من قاعدتهم فى فراكسينتوم (٩٧٥) ، فتفرقوا فى مناطق جبال الألب ولاسيما فى ممر سان برنار الكبير ثم عفى عليهم .

٩ – ايطاليا وصقلية :

والصلات بين الشرق الأدنى وشمالى أفريقيا والجزر الشرقية وبين إيطاليا وصقلية وكورسيكا صلات قديمة وثيقة منوعة[٢٣] لم تكن خافية على المسلمين فبدءوا بجزر الباليار ، فمر بها عبد الله بن موسى بن نصير (٧٠٧ – ٧٠٨) ابتغاء فتحها ، وكر عليها المسلمون (٧٩٧ – ٧٩٨) ، فردهم عنها شارلمان (٧٩٩) ، ثم مكنهم منها النورمان (النورمانديون – أهل الشمال) ، فاستولى عليها عصام الخولانى (٩٠٣) .

ولما استقل الأغالبة عن بغداد بتونس (٨٠١) ، وأحلوا الإسلام والعربية محل النصرانية واللاتينية غزوا شاطئ إيطاليا وفرنسا ، واحتلوا كورسيكا (٨٠٩) وسردينيا (٨١٠) ، ثم استولى منفيو الأندلس على كريت (٨٢٥) ، فاستؤنف النزاع القديم بين قرطاجنة وبين اليونان ومن بعدهم الرومان على صقلية (٨٢٧) ، فما استعان أو فياس أحد ثوار سرقوسة بالأغالبة على الحاكم البيزنطى حتى استنفر زيادة الله الأغلبى الجند لجهاد صقلية ، وجرد عليها أسطولاً من سبعين سفينة فيها عشرة آلاف مقاتل وسبعمائة فارس ، عقد لواءه للقاضى الوزير أسد بن

---

(٢٣) الفصل الأول . مهد الحضارة – قرطاجنة – والفصل الثانى . العرب قبل الإسلام .

الفرات ، فتوفى بعد جهاد ١٣ شهراً ، ودفن تحت أسوار سرقوسة .

وخلفه محمد بن أبى الجوارى ، ثم فتح زهير بن عوف بالرمو (٨٣١) وجعلها نقطة ارتكاز لفتوح أخرى وللتدخل فى الخلافات الناشبة بين الدويلات الإيطالية . وصدق حدسه ، فاستنجدت نابولى المسلمين (٨٣٧) ، فأنجدوها ، وغزوا أنكونا (٨٣٩) ، واستولوا على تورنتو (٨٤٠) ومسينا (٨٤١) وبارى – حصن البيزنطيين فى الجنوب وجعلوها قاعدتهم الرئيسية – ولما استقل قوادها عن أمير بالرمو استعادها الإيطاليون (٨٤١ – ٨٧١) ، وانقضوا على سالرنو بدعوة من دوق بنفنتو (٨٤٢) ، وارتدوا عنها بعد تخريبها مساكن ومزارع ، ثم ظهروا فى جوار البندقية ، وأشرفوا على رومة ، ونزلت فيالقهم بأوستيا مرفئها البحرى (٨٤٦) ، وعندما عجزوا عن اختراق أسوارها استولوا على مافى خارجها من كنوز كاتدارائيات القديس بطرس والفاتيكان والقديس بولس ، واستباحوا ضواحيها وعبثوا بقبور الباباوات . ولم تنل منهم الهزيمة البحرية التى أنزلها بهم دوق نابولى فى وقعة ليكوزا (٨٤٦) ، فكروا بسفنهم على أوستيا حيث قهرهم أسطول إيطالى بفضل الحلف الذى عقده البابا ليون الرابع (٨٤٩) . وفى حجرة حريق المدينة بالفاتيكان صورة لرفائيل تمثل تلك الوقعة البحرية – وجاء من ألمانيا الإمبراطور لويس الثانى وأرجعهم إلى بارى وتورنتو (٨٦٦) ولكنهم عادوا – وقد احتل أصحابهم قصر بانة (٨٥٩) – ومالطة (٨٧٠) إلى تهديد رومة (٨٧٢) ، واضطروا البابا يوحنا الثامن إلى تأدية نحو ٢٥ ألف رطل من الفضة جزية مدة سنتين[٢٤] ، وأغاروا على كامبانيا (٨٧٦) ، وفتحوا سرقوسة (٨٧٨) ، واستعاد باسيل الأول الإمبراطور البيزنطى تورنتو منهم (٨٨٠) فلم يعبئوا بل استأنفوا غاراتهم فأحرقوا دير مونتى كاسينو ودمروه عن آخره (٨٨٤) ، وبلغوا رغوصة فى يوغسلافيا فحاصروا مرفأها مدة ثم ارتدوا عنه ، ونشرت قاعدتهم الحربية التى أنشئوها فى جوار جليانو (٨٨٢ – ٩١٥) الرعب فى كامبانيا وجنوبى لاتيوم حتى اجتمعت عليهم قوات البابا وإمبراطورى ألمانيا وبيزنطية ومدن إيطاليا الوسطى والجنوبية ، فهزمتهم على نهر كرجليانو (٩١٦) ، وأجلتهم عن إيطاليا إلى صقلية ؛ ومازالت أبراجهم التى كانت تذيع أنباء وصول أساطيلهم من صقلية وشمالى أفريقيا قائمة على شاطئ نابولى الجنوبى .

وتبع أمراء صقلية أغالبة القيروان حتى إذا ظهرت عليهم الخلافة الفاطمية فى شمالى أفريقيا – استقل أمراء صقلية عنها ، وخطبوا للخليفة العباسى المقتدر (٩١٢ – ٩١٦) ، ثم

---

(٢٤) Amari, Storia, éd Nallino, v. 1, pp. 588-93.

استعادها الفاطميون (٩١٧) ، واتخذوها قاعدة بحرية لحملاتهم على البندقية ، وعلى جنوى التي استباحوها (٩٣٥)[٢٥] ، واستعمل المنصور ثالث الخلفاء الفاطميين حسن بن على الكلبي على صقلية ، فأسس فيها الدولة الكلبية .

وقد جلب المسلمون إلى صقلية : البرتقال والتوت والزيتون وقصب السكر والنخيل والقطن والكتان ؛ ووسعوا رقعة الأرض المزروعة فيها ، وما زال كثير من ينابيعها يحمل أسماء عربية حتى اليوم ، وجعلوا من بالرمو ثغراً تجاريًّا خطيراً بين أوربا وبين شمالى أفريقيا .

ولما سقطت الدولة الكلبية (١٠٤٠) انقسم المسلمون على أنفسهم : فحكم بالرمو مجلس من الأعيان ، وسائر الجزيرة أمراء محليون انصرفوا إلى شهواتهم ، وخلّف التدخل البيزنطى أثره فيهم ، فمهد للفتح النورمانى ؛ إذ كان حجاج القدس وجلهم من النورمان عائدين عن طريق إيطاليا ، فاستعان بهم كونت دافلينو على المسلمين (١٠٥٧) ، وأطمع النصر الكونت روجه بن تانكرد دى هوتفيل فحمل على مسينا وفتحها (١٠٦٠) ، ثم سقطت بالرمو (١٠٧١) وسرقوسة (١٠٨٥) ، ومالطة (١٠٩٠) ، والصقليتان ما خلا بضعة مراكز (١٠٩١) ، فهاجرت الطبقة المثقفة إلى شمالى أفريقيا ومصر ، وخضع غيرها للنورمان .

ولم يقف الأمر عند ضياع صقلية : فقد أدى انقسام المسلمين فى شمالى أفريقيا إلى الاستعانة بروجه صاحب صقلية وبخلفائه ، فبسطوا حمايتهم على الكثير من شمالى أفريقيا حتى عام (١٥١٠) ، ثم خلفهم الإسبان والأتراك إلى سنة ١٩١١ ، ثم حل الفرنسيون محلهم فى الجزائر (١٨٣٠) وفى تونس (١٨٨١) وفى مراكش (١٩٠١) والايطاليون فى طرابلس الغرب (١٩١١ – ١٩١٢) ثم جلوا عنها .

١٠ – الحملات الصليبية :

وللحملات الصليبية دوافع متعددة لأغراض منوعة : فقد أصبحت القدس منذ أن شيدت فيها هيلانة أم الامبراطور قسطنطين كنيسة القيامة (القرن الرابع) مزاراً للمسيحيين ، ثم جمعت بينهم وبين المسلمين بعد استيلائهم عليها (٦٣٨) فأبى الخليفة عمر أن يصلى فى تلك الكنيسة ، وعهده لأهلها مشهور . ثم تبادل العباسيون والفرنسيون السفارات والهدايا (٧٩٧ – ٨٠٦) ، ووافق هرون الرشيد على جعل حماية القدس فى يد شارلمان (٨٠٧) ، فأرسل أحد بطاركتها مفاتيحها إليه (٨٠٧) حتى ألغى الحاكم بأمر الله الفاطمى تلك الحماية ،

---

(٢٥) Le Bon, La Civilisation des Arabes, p. 312.

ودمر كنيسة القيامة (١٠٠٩) ، فهب المسلمون يعاونون على إعادة بنائها ، ويأذنون لتجار مالفى بتشييد مستوصف لمرضى الحجاج والفقراء داخل أسوار القدس (١٠٤٨) ، وقد أسس مستوصفاً فيها على غراره فرسانُ القديس يوحنا (١٠٧٠) .

ولما عمدت دولة السلاجقة السنية إلى توسيع رقعتها على حساب الدولتين : الفاطمية الشيعية والبيزنطية المسيحية وبلغت القدس (١٠٧٠) آذت الحجاج واضطرتهم إلى الحج فى قوافل ، ثم انتصرت على بيزنطية فى وقعة منزكرت (١٠٧١) ، وهددت القسطنطينية ، فاستنجد إمبراطورها الكسيوس الأول كومنينوس (١٠٨١ – ١١١٨) البابا أربانيوس الثانى (١٠٨٨ – ١٠٩٩) ، فخطر له توحيد الكنيسة بعد انشقاقها (١٠٥٤) ، وطمع نبلاء أوربا فى مغانم الفتح ، وقد استولى النورمان على صقلية (١٠٦٠ – ١٠٩٠) وألفونسو السادس على طليطلة (١٠٨٥) وطفق يسترجع إسبانيا من المسلمين – وجنوى وبيزا فى التجارة ، بعد استيلائهما على ثغر المهدية (١٠٨٧) والمجرمون فى التكفير عن ذنوبهم استجابة للحركة الكلونية الداعية إلى الحج للتوبة . وفى ذلك الجو عقد مجمع كليرمون (١٠٩٥) برئاسة أربانيوس الثانى وهو كلونى فرنسى ، ودعا فيه بطرس الناسك أحد الحجاج الذين لقوا الأذاة على يد السلاجقة إلى الحرب الصليبية ، فأقره المجمع عليها وألفت فى سبيلها ثمانى حملات :

الحملة الأولى (١٠٩٦ – ١٠٩٩) وقد انقسمت إلى فصيلتين ، وانطلقت طليعتها قبل موعدها حتى إذا بلغت القسطنطينية ولم يعوضها الإمبراطور ألكسيوس عما فقدته – نهبت كنائسها وقصورها وبيوتها ، فأمدها بالسفن والمؤن تخلصاً منها ، فعبرت إلى نيقية حيث خرجت عليها قوة من السلاجقة أبادتها على بكرة أبيها .

وقاد الأخرى النبلاء : جودوفروادى بويون ، وأخوه بودوين ، وبوهمند ، وابن أخيه ريمون تانكرد وليس بينهم ملوك فرنسا وإنجلترا وألمانيا ؛ إذ كانوا مطرودين من حظيرة الدين فبلغت القسطنطينية (١٠٩٧) وعنّ لبوهمند الاستيلاء عليها لولا جودوفروا ، فى الوقت الذى كان ألكسيوس يرشو قواد النبلاء للولاء له من دونهم ، وسقطت فى أيدى هذه الفصيلة : نيقية (١٠٩٧) والرها ، وأنطاكية (١٠٩٨) والقدس (١٠٩٩) بعد حصار ٤٠ يوماً ، فذبحوا من سكانها ٧٠ ألفاً وجمعوا اليهود فى كنيس وأضرموا فيه النار ، ثم بايعوا جودوفروا ملكاً عليها ورجع معظمهم إلى أوطانهم ، وفر بطريرك القدس البيزنطى إلى قبرص ، وأمن الملك الساحل بأسطول بيزا لقاء منحها حقوقاً فى يافا ، فغضبت البندقية واستولى أسطولها على

حيفا بعد شهر من وفاة الملك[٢٦] وخلفه أخوه بودوين الأول (١١٠٠ – ١١١٨) ثم ابن عمه بودوين الثانى (١١١٨ – ١١٣١) ثم بودوين الثالث ، فامتد فتح الساحل من قيصرية حتى طرابلس ، وشيدت القلاع والحصون ، وضربت الجزية على دمشق وبعض المدن السورية ، وأعيد إلى بيزنطية نصف أملاكها فى آسيا الصغرى .

الحملة الثانية (١١٤٧ – ١١٤٩) وانقض عماد الدين زنكى على الرها ، فانتزعها وضواحيها من أيدى الصليبيين (١١٤٤) ، فاستغاثوا بأوربا فأمدتهم بحملة عليها كونراد ملك جرمانيا ولويس السابع ملك فرنسا ، واشتركا فيها لأن راهباً اسمه أرنولد ألف جماعة استولت على القاتيكان وفر البابا منه (١١٤٦) ، وسار الفرنسيون وراء الجرمان حذراً منهم ، وعندما رُدوا عن حصار دمشق عاد الملكان إلى بلديهما ، وخلف زنكى ابنه نور الدين فأسر جوسلين الثانى أمير الرها (١١٥١) وبوهمند الثالث أمير أنطاكية (١١٦٤) وريمون الثالث أمير طرابلس ، ولم يوفق فى فلسطين ؛ إذ سقطت عسقلان فى يد بودوين الثالث ملك القدس (١١٥٣) وأدت . دمشق[٢٧] ثمانية آلاف دينار مقاطعة جزية للصليبيين (١١٥٦) ودخلوا مصر (١١٦٨) ثم ردوا عنها .

وجاء صلاح الدين الأيوبى وله أمنيتان : إحلال السنة محل الشيعة فى مصر ، وإجلاء الفرنجة عن الشرق ، فقضى على الدولة الفاطمية فى دمشق (١١٧١) ، وأخضع سوريا (١١٧٤) ، وعقد هدنة مع ملك القدس إلا أن رينودى شاتيون – ويطلق المسلمون عليه أرناط أمير حصن الكرك لم يرعها – فثار غضب صلاح الدين وانقض على الصليبية فى طبرية وحطين وفتح القدس صلحاً (١١٨٧) ، وهدم أماكن العبادة الصليبية فيها ، وخير أرناط – وكان يحسن العربية – بين الإسلام والقتل ، فلما أباه ضرب عنقه ومن معه على مشهد من الناس[٢٨] ، ووزع على أراملهم ويتيماتهم من ماله الخاص ، وعفا عن بوزنيان ملك القدس ، وأعتق كثيراً من الأسرى . ثم تابع زحفه على مدن الصليبية وقلاعها وحصونها ، فلم يسلم لهم منها سوى أنطاكية وطرابلس وصور وبعض الدساكر الساحلية (١١٨٩) .

الحملة الثالثة (١١٨٩ – ١١٩٢) وأفزع سقوط القدس أوربا ، فجهزت حملة تزعمها فردريك باربروس إمبراطور جرمانيا ، ورتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا ، وفيليب أوجست

---

(٢٦) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص١٠١ .

(٢٧) ابن القلانسى ، ص٣٣٦ .

(٢٨) أبو شامة ، كتاب الروضتين جـ٢ ، ص٧٥ .

ملك فرنسا – وقد أصر ملك فرنسا على أن يصحبه ملك إنجلترا لئلا يستولى على أملاكه فى غيابه – والتقى رتشارد وفيليب عند عكا ، فاستسلمت حاميتها بعد حصار طويل (١١٩١) على ٢٠٠ ألف قطعة من الذهب ، و ١٦٠٠ أسير ، ورد عود الصليب الذى كان صلاح الدين قد احتفظ به ، عندئذ رجع فيليب وظل رتشارد ، ولما أبطأ صلاح الدين عن الفدية شهراً أمر رتشارد بالحامية وعددها ٢٧٠٠ فقتلت ، وامتلك يافا وهم بالقدس ، فانقسم عليه الفرنسيون خوفاً منه على عرشها ، فاقترح زواج أخته من الملك العادل أخى صلاح الدين وإهدائهما القدس ، وأنعم على الملك الكامل بن الملك العادل برتبة الفروسية للاتين (١١٩٢) ثم عقد صلح الرملة على أن يكون الساحل للاتين والداخل للمسلمين وألا يتعرض أحد للحجاج فى القدس (١١٩٢) .

الحملة الرابعة (١٢٠٢ – ١٢٠٤) أعدها بودوين التاسع كونت الفلاندر ، فصرفه أهل البندقية – وكانوا قد عقدوا حلفاً سرياً مع مصر – عنها إلى فتح زارا ؛ حتى إذا استغاث إمبراطور القسطنطينية ببودوين على أخيه الذى خلعه عن العرش واحتل البنادقة القسطنطينية ، وتقاسموا ثروتها وكنوز كنائسها (١٢٠٣) – إنصرف إليها .

وثمت حملة فتيان (١٢١١ – ١٢١٩) جرمانية وفرنسية لم تبلغ الشرق ، قضى معظم الأولى من الجوع وفتك الذئاب وسرقة اللصوص قبل بلوغهم جنوى . وألقت السفن المقلة للأخرى مرساتها ، بأمر فردريك الثانى ، فى ثغور تونس ومصر ، حيث بيع فتيانها فى أسواق الرقيق .

الحملة الخامسة (١٢١٩ – ١٢٢١) بقيادة جان دى بريان ملك القدس وأندريا الثانى ملك المجر (هنغاريا) ، فوجهتها جمهوريات إيطاليا وجهة مصر تيسيراً لتجارتها فى البحر الأحمر والمحيط الهندى ، وبعد فتح دمياط – اقترح عليها السلطان الكامل الجلاء عن مصر لقاء إرجاع المملكة الصليبية إلى معظم ماكانت عليه قبل أبيه صلاح الدين ، فرفضت وراحت تتوغل فى أراضى الدلتا حتى أجلاها عنها الفيضان ، وحنث فردريك الثانى بيمينه فى الانضمام إليها ، فعقدت معاهدة مع الملك الكامل ، ورجعت من حيث أتت .

الحملة السادسة (١٢٢٨ – ١٢٢٩) تولى أمرها فردريك الثانى ، وكان قد نذر على نفسه حملة صليبية (١٢١٥) ثم شغل عنها فحرم لتسويفه . ولما لم يلق معونة من فرنجة فلسطين عقد مع السلطان الكامل معاهدة (١٢٢٩) نزل بها السلطان للملك عن : صيدا ، وعكا ، ويافا والناصرة ، وبيت لحم ، والقدس ماعدا الفضاء المحيط بقبة الصخرة . واطلاق جميع

الأسرى من الطرفين لقاء احترام ممتلكات السلطان فى سوريا ومساعدته على أعدائه وأكثرهم من الأيوبيين[٢٩] ومنعه الإمداد الأوربى عن الإمارات الصليبية ، وإطلاعه على كل ما يصل إليه علمه من نشاط صليبى فى أوربا ، فلم يرض عن تلك المعاهدة المسلمون ولا الصليبيون ، وحرم البابا المدينة المقدسة حرماناً شاملا ما أقام فردريك فيها .

وخلف العادل أباه الكامل (١٢٣٨) وثار أخوه الصالح به (١٢٤٠) وأخرجه من مصر ، وعقد الصليبيون حلفاً مع أمير دمشق المسلم على الصالح فاستنجد أتراك خوارزم ، فاستولوا على القدس ونهبوها وقتلوا عدداً كبيراً من أهلها (١٢٤٤) .

الحملة السابعة (١٢٤٨ – ١٢٥٤) قادها لويس التاسع ملك فرنسا – فتأهب هنرى الثالث ملك إنجلترا لغزو فرنسا – فاستولى على دمياط (١٢٤٨) ، وغلبه المماليك فى وقعة المنصورة (١٢٥٠) وأسَره ومعظمَ نبلائه تورنشاه بنُ السلطان الصالح أيوب ، ثم أطلق سراحهم لقاء فدية وتسليم دمياط[٣٠] فقصدوا عكا وأقاموا فيها أربع سنين رحلوا بعدها إلى أوربا ؛ وخاف السلطان الظاهر بيبرس المغول فحالف إمبراطور بيزنطية ميخائيل بليولوغس وبعض أمراء صقلية وإسبانيا ، واجتاز الفرات على ظهور الخيل إلى المغول وهزمهم فى بلادهم . ثم أحيا الخلافة العباسية باستدعائه أبا القاسم العباسى ومبايعته فى القاهرة (١٢٦١) وخرب كنيسة الناصرة (١٢٦٣) وسقطت فى يده قيصرية (١٢٦٥) وصالحته صفد على أمان ألفى فارس فيها (١٢٦٦) فجمعهم وقتلهم عن آخرهم . ويافا (١٢٦٧) وأنطاكية (١٢٦٨) فقتل من حاميتها ١٦ ألفاً وسبى ١٠٠ ألف بيع بعضهم فى أسواق مصر ، وأحرق قلعتها وكنيستها وغنم أموالاً طائلة منها[٣١] واستسلم له حصن الأكراد (١٢٧١) .

الحملة الثامنة (١٢٦٧ – ١٢٧٠) جردها لويس التاسع ملك فرنسا ، ولكنه قضى نحبه أمام تونس (١٢٧٠) على حين كانت الإمارات الصليبية ومدنها تسقط الواحدة تلو الأخرى فى أيدى سلاطين مصر : فرد قلاوون (١٢٧٩ – ١٢٩٠) على غزو المغول سوريا واستعجالهم البابا وبعض ملوك أوربا فى حملة صليبية تقضى على سلطنة مصر بعقد معاهدات مع بعض أمراء إسبانيا ، وأميرة صور ، واتفاق تجارى مع جنوى ، ثم هزم المغول وأخضع قلعة المرقب (١٢٨٥) وطرابلس فهدها ودك قلعتها (١٢٨٩) ، وفتح ابنه الملقب بالأشرف (١٢٩٠ –

---

(٢٩) أبو الفداء ، جـ٣ ، ص١٤٨ .

(٣٠) Joinville, p. 201.

(٣١) المقريزى ، جـ١ ، ص٢ – ٢٩ .

١٢٩٢) عكا ، وقتل حاميتها عن آخرها وأحرقها (١٢٩١) ، فأدى سقوطها إلى جلاء الصليبيين عما كان فى أيديهم : صور ، وصيدا ، وبيروت . وطرطوس .

وهكذا ردت أوربا على غزوات المسلمين بثمانى حملات ، وقيل عشر بإضافة حملة سيجفارد جور سلفار ملك النرويج (١١٠٧ – ١١١١) وحملة يوحنا هو نبادى (١٤٤٣) وما تفرع عن تلك الحملات ؛ إذ انتزع فرسان القديس يوحنا الذين تأسسوا فى القدس (١٠٧٠) ونجوا من مذبحة عكا بفرارهم إلى قبرص (١٢٩١) رودس من المسلمين (١٣١٠) ومالطة وتسموا باسمها (١٣١٠ – ١٥٢٢) وغزوا الإسكندرية ونهبوها (١٣٦٥) وطرابلس بلبنان والمهدية من أعمال تونس (١٣٩٦) .

وقد كان فيليب ليبل ملك فرنسا قد صادر أموال أولئك الفرسان وعذبهم ، وألغى البابا نظام فرسان المعبد (١٣١٢) ، وصادر إدوارد الثانى أملاكهم فى إنجلترا . وقد حالف بعض الحملات الصليبية النصر حيناً وباء بعضها بالفشل ، ثم انتهت جميعاً بهزيمة الفرنجة وعودتهم إلى أوربا عودة المسلمين من معظمها إلى الشرق .

١١ – الإمبراطورية المغولية :

وفيما كانت الحروب الصليبية تشرف على نهايتها ظهر جنكيزخان (١١٦٢ – ١٢٢٧) ، فوحد قبائل المغول (١٢٠٣) – ويطلق العرب عليهم التتر ، وقد اشتقوا كتاباتهم من الأبجدية السريانية فعل قبائل المانشو – ووضع أساس أكبر إمبراطورية زعزع قوادها الممالك ما بين الصين وبين الإدرياتيكى ، وقضوا على غيرها : ففتح المغول بخارى (١٢١٩) وسمرقند (١٢٢٠) ودمروا خراسان ونيسابور ، واستولوا على هرات ، وهزموا الروس عند نهر كلكا ، وجلسوا فوق أسراهم من القواد الأشراف ؛ ليطعموا وليمة النصر ، فماتوا تحتهم اختناقاً (١٢٢٤) ، ثم ارتدوا عن روسيا لفتح الصين ، ولما رجعوا إليها (١٢٣٧) بقيادة باتوخان حفيد جنكيز خان دكوا المدن وأحرقوا موسكو وحاصروا فلادمير ، وفتحوا كييف (١٢٤٠) ، وانطلقوا ينهبون ويدمرون ويقتلون . ثم سيطرت حامية إحدى قبائلهم على القسم الأكبر من روسيا مدى ٢٤٠ عاماً ، فوضعت الجزية على أشرافها وجندت من أهلها وصالحت الكنيسة الروسية طمعاً فى تأييدها ، على حماية رجالها وممتلكاتها وإعفائهم وإياها من الضرائب .

وأغار المغول على بولونيا والمجر وألمانيا (١٢٣٧) ، وهزموا البولونيين والألمان (١٢٤٠) وقطعوا الدانوب إلى بلغاريا وخربوا بلاد ما بين النهرين وأذربيجان وأرمينيا وجورجيا

(١٢٤٥ – ١٢٥٣) ، وعبر هولاكو نهر جيحون واكتسح فارس وبغداد والشام (١٢٥٨) ، ثم جاء تيمور لنك (١٣٣٦ – ١٤٠٥) فاعتنق الإسلام ، ورد نسبه إلى جنكيزخان ، واجتاح فارس وبغداد (١٣٩٣) وموسكو (١٣٩٥ ، وكان قد أنفذ تقتمش لغزوها (١٣٨٠–٨١) والهند (١٣٩٨) وسوريا (١٤٠١) وقهر العثمانيين (١٤٠٢) وتوفى فى زحفه على الصين (١٤٠٥) .

وعاد سلاطين دلهى بعد تيمور لنك إلى عروشهم قرناً آخر أزالهم بعده عنها الفاتح بابور (١٥٢٥) ، وأسس فيها أسرة المغول التركية .

وتنكب ابنه همیون خطاه ، فألجأه الأفغان إلى فارس حيث أعد جيشاً استعاد به عرش أبيه . وكانت زوجته قد أنجبت له فى أثناء نفيه ولداً أسماه محمداً . وأطلقت عليه الهند لقب أكبر ، فلما تسلم مقاليد الحكم (١٥٥٦) وسع رقعة ملكه وجمع فى شخصه السلطات ، وقام بكثير من ضروب الإصلاح واقتنى مكتبة ضمت ٢٤ ألف مخطوط – وكان يزدرى الكتب المطبوعة التى قدمها له اليسوعيون الذين عهد إليهم بتربية أحد أبنائه – وأشرف بنفسه على بناء الحصن فى أجرا ، ثم كون من الديانات ديانة جديدة ونادى بنفسه رئيساً عليها . فثار به المسلمون وشق ابنه جهان كير عصا الطاعة عليه ، ولما توفى لم يصلِّ عليه رجل من أية عقيدة أو مذهب !

وانغمس جهان كير فى الخمر والمجون والقسوة فأفقر الهند ، واستبطأ موته ابنه جهان فحاول اعتلاء العرش (١٦٢٢) ففشل وعندما بلغه نعيه أسرع من الدكن حيث كان مختفياً ، وأعلن نفسه إمبراطوراً ولقب بشاه جهان وقتل إخوته جميعاً وأسرف فى الضرائب والاضطهاد إسرافاً أجاع الهند . وفات جهان قتل أبنائه ، فكتب لأحدهم وهو أورنجزيب أن يثور به (١٦٥٧) ويزحف عليه من الدكن ويلقيه فى حصن أجرا . وكان أورنجزيب مسلماً ورعاً يحفظ القرآن ويقيم الصلاة ويصوم رمضان ويجاهد الوثنيين .

ولم يمض على موته سبعة عشر عاماً حتى تمزقت إمبراطوريته شر ممزق ، فما كسبه أكبر بحكمته أضاعه جهان كير بقسوته ، وشاه جهان بإسرافه ، وأورنجزيب بتعصبه[٣٢] .

---

(٣٢) قصة الحضارة . الجزء الثالث ، الهند وجيرانها ص١٢٥ وما يليها ، تأليف ول ديورانت ، ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود . منشورات الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية (القاهرة ١٩٥٠) .

١٢ – السلطنة العثمانية :

وبعد أن ألقى الستار على الحروب الصليبية أسس أبو عثمان التركى السلطنة العثمانية (١٣٠٠) على أنقاض الدولة السلجوقية وحساب الولايات البيزنطية ، ثم طفق خلفاؤه يوسعون رقعتها : فاستولى مراد على بلغاريا وصربيا (١٣٨٥ – ١٣٨٦) وانهزم فى بلوشنك (١٣٨٧) ، وقتل فى وقعة قوصوة (١٣٨٩) وخلفه ابنه بايزيد الأول (١٣٨٩ – ١٤٠٣) ، وتفاقم به خطر العثمانيين ، فألفت أوربا جيشاً لقتالهم من فرسان المجر وبولونيا وفرنسا وألمانيا بزعامة سجسمند ملك المجر فقهرهم بايزيد فى وقعة نيقوبوليس (١٣٩٦) ومد ملكه من الفرات إلى الدانوب . وكسره تيمور لنك فى وقعة أنقرة وأسره وأحد أبنائه (١٤٠٢) وتنازع أبناء بايزيد العرش بعده فعاد السلاجقة إلى إماراتهم ، واستقل الصرب والبلغار والأفلاق حتى استرد محمد الأول (١٤١٣ – ١٤٢١) ما كان للعثمانيين قبل وقعة أنقرة . وانتصر على أسطول البندقية فى وقعة غاليبولى وحالف القسطنطينية وإمارات النصارى .

وفى عهد خلفه محمد الثانى (١٤٥١ – ١٤٨١) سقطت القسطنطينية فأعمل جنوده فيها القتل والنهب والاسترقاق ، وحولوا كنيستها أياصوفيا إلى جامع (١٤٥٣) ثم أمن النصارى على دينهم وأملاكهم ، واتخذ القسطنطينية عاصمة ، فاقتبس هو ومن جاء بعده من السلاطين الكثير من النظم البيزنطية حتى قيل : ما السلطان إلا إمبراطور مسلم . وبلغ كثيرون من الجراكسة واليونان والإيطاليين والألبانيين والسلاف والأرمن واللبنانيين أعلى مراكز الدولة ومنها الصدارة العظمى .

كما خلف العثمانيون الخلافة الإسلامية وأخذوا عنها الإسلام والأبجدية – وكانت حروفهم سريانية – وألوف المصطلحات الدينية والشرعية والعلمية والأدبية . وهزم بايزيد الثانى (١٤٨١ – ١٥١٢) أخاه جم فاستسلم إلى فرسان القديس يوحنا فى رودس (١٤٨٢) وأدى لهم السلطان ٤٥ ألف دوقة سنوياً لئلا يشجعوه على المطالبة بالعرش أو يتخذوه عوناً فى حرب صليبية على الأتراك . فنقلوه إلى فرنسا . ثم إلى الفاتيكان (١٤٨٩) فأسرع السلطان بإرسال مرتب ثلاث سنوات إلى البابا ، ثم رأس حربة أكد له أنه هو الذى نفذ فى جنب المسيح (١٤٩٢) وقد استعان البابا ألكسندر ببايزيد الثانى على فرنسا (١٤٩٤) إلى أن أرغمه الانكشارية – وأصلهم من أسرى الدول الأوربية أو الرقيق أو الجزية مكنوا للسلطنة طوال

ثلاثة قرون – على التخلى عن العرش .

وخلفه ابنه سليم الأول (١٥١٢ – ١٥٢٠) فاستولى على تبريز وجزء من أرمينيا (١٥١٥) وسوريا (١٥١٦) ومصر (١٥١٧) وأجلى خير الدين بروسا وأخوه ، وكانا عثمانيين من أصل يونانى – الإسبان عن الجزائر ووهباها للسلطان (١٥١٨)

وفى زمن سليمان القانونى (١٥٢٠ – ١٥٦٦) أخضِعت أكثر بلاد المجر ، وفتحت رودس آخر المعاقل الأوربية فى شرق البحر المتوسط (١٥٢٢) واعتقل بعض الجواسيس العثمانيين فى رومة فبلغ الهلع بين سكانها مبلغاً ذكرهم بهنيبعل بعد انتصاره فى كاناى (٢١٦ ق . م) ، ولكن نهب رومة لم يأت على يد العثمانيين بل بإيعاز من ملك إسبانيا فغزاها زعيم تيرولى بجيش من المرتزقة الألمان والجنود الإسبان (١٥٢٧) ، فانطلقوا يقتلون أهلها فى البيوت والمستشفيات والملاجئ والمعابد ، ويهتكون أعراض المحصنات ، وينهبون الكنائس والأديار ، ويحولون بعضها إلى اسطبلات ، ويجردون الفاتيكان من كنوزه ، ويركبون من وقع فى أيديهم من الأساقفة دواب قذرة ووجوههم نحو ذيولها وعليهم شارات مناصبهم . واحتل بيرى رئيس ، وهو أمير بحر عثمانى من أصل أوربى عدن (١٥٤٧) ومسقط (١٥٥١) ، وأخضع سنان باشا الألبانى طرابلس الغرب (١٥٥١) واليمن (١٥٦٨) وتونس (١٥٧٤) ، فامتدت سلطنة العثمانيين من الدانوب إلى دجلة ومن القرم حتى شلال النيل الأول . ولما حاصروا فيينا (١٦٨٣) للتدخل فى سياسة أوربا جاءت بداية نهايتهم : فخسروا المجر (١٦٨٦) ، واستولى النمسويون على بلغراد (١٦٨٨) واستعادها العثمانيون (١٦٩٠) وانتصروا على النمسا وروسيا (١٧٣٥ – ١٧٣٩) ، ثم ضعفوا فانسلخت الجزائر عنهم (١٨٣٠) وتونس (١٨٨١) ومراكش (١٩٠١) إلا أن سلطنتهم كانت من أطول الدول الإسلامية عمراً ارتقى عرشها ستة وثلاثون سلطاناً من صلب عثمان (١٣٠٠ – ١٩٢٢) .

١٣ – طرق التجارة :

ومرة أخرى لم يسدل الستار ، إنما رفعته الاكتشافات بحيث كاد يسفر عن العالم قاطبة فى سلع تنقلها البواخر وتفرضها المدافع :

(ا) فى الشرق الأدنى :

لقد كان للحملات الصليبية شأن كبير فى استئناف التجارة الواسعة بين الشرق والغرب ،

وفتح الأسواق الدولية لها ، وقيام المصارف بتمويلها ، وتنظيم الحكومات قوانينها تنظيما دقيقاً . ولعل أولى المفردات العربية فى التجارة الأوربية قبل القرن العاشر الميلادى التعريفة والمخزن إلخ . وأقدم نقود الفرنجة الذهبية تلك التى ضربها البنادقة فى القدس وعليها كتابة عربية ، وأول قنصل لجنوى فى عكا (١١٨٠) وقد بعث صلاح الدين الأيوبى إلى الخليفة بكتاب (١١٨٣) يبرر فيه تشجيع هذه التجارة بقوله : ومن هؤلاء الجيوش البنادقة والبياشنة والجنوية . . . وما منهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده ويتقرب إلينا بإهداء طرائف أعماله وبلاده . وكلهم قررت معهم المواصلة [٣٣] . وعقد صلاح الدين مع البنادقة والجنويين اتفاقات لتوريد السفن والخشب والسلاح والذخيرة – ولطالما سخط البابا على هذه التجارة وحرمها فلم يفلح – ولما عطلت غزوات المغول الطرق البرية بين أوربا وآسيا فى القرن الثالث عشر – تحولت تجارة الهند والصين والموصل والخليج العربى وشمالى أفريقيا إلى ثغور مصر ولبنان وسوريا وضمت إلى حاصلاتها ، فامتلأت تلك الثغور بالأرز والسكر والتمر والتوابل والأفاويه والأبزار ، وبالأحجار الكريمة والعاج والطيوب والعقاقير ، وبنسيج الحرير والكتان والقطن الموصلى والبغدادى والدمشقى والأطلسى ، وبالسجاجيد والطنافس وآنية الخزف والزجاج والأصباغ وأدوات الترف . وكان تجار قطلونية وجنوى والبندقية ومرسيليا ورغوصة [٣٤] وبرشلونة – وعقد الحفصيون فى مراكش (١٢٠٨ – ١٣٠٩) اتفاقات تجارية مع برشلونة ، ومرسيليا ، وجنوى ، وبيزة والبندقية ، وصقلية ، مما يبرر دفع الجزية لصقلية ، ثم لأراغون ، ثم استأنفت علاقاتها التجارية بأوربا فى أوائل القرن السابع عشر فشملت بريطانيا وهولندا وغيرهما يفدون فى مواسم معينة بمتاجرهم فيعرضونها فى مستودعاتهم على تلك الثغور ويبتاعون سلعها .

وحذا المماليك حذو صلاح الدين فعقدوا الاتفاقات وزادوا عليه احتكار بعض السلع وفرض المكوس على كل ما يمر بمصر لقاء منح البنادقة والجنويين امتيازات ، فقامت الحرب بينهما عليها (١٢٩٨) ، ولما هزمت البندقية جنوى وجعلتها تقتصر على تجارة البندقية – أنشأت هى فى الإسكندرية فندقين وكنيسة وحمامات حصر تجارها نشاطهم فيها ، وكانوا يقفلون على

---

(٣٣) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، فى حوادث سنة ٧٥٠ .

(٣٤) وهى مرفأ على الأدرياتيكى حاصره العرب فى القرن التاسع وارتدوا عنه ، ثم حالفوا أهله فامتدت تجارتهم إلى مصر ولبنان وسوريا والبحر الأسود وشمالى أفريقيا .

أنفسهم وقت صلاة الجمعة وفى أثناء الفتنة وكل مساء ، ويسلم المفتاح إلى قنصلهم فيعيده إليهم صباح اليوم التالى .

وقد قدرت صادرات البندقية إلى الشرق الأوسط بعشرة ملايين دوقية فى السنة ، وكان لمصرف تشيجى فروع فى القسطنطينية والإسكندرية والقاهرة ، ومائة سفينة ترفع رايته ، وخمسة وعشرون ألف عامل مأجور عنده . واستولى البنادقة على رافنا (١٤٤١) وتكلم تجارهم العربية ، ثم أضافوا إليها التركية بعد سقوط القسطنطينية (١٤٥٣) ، وأفادوا من علماء الشرق الفارين من العثمانيين إفادتهم من علماء الغرب فى العلم والفن ، وبدءوا صناعة الخزف (١٤٧٠) ولبوا دعوة السلطان محمد الثانى ، فبعثوا إليه الرسام جنتيلى فزيّن حجرات قصره فى القسطنطينية (١٤٧٤) ، ونزلت ملكة قبرص عنها لحاكم من قبل البندقية (١٤٨٩) وعرض دوقها على المماليك المساهمة لإعادة القناة القديمة (١٥٠٤) ، ولكن ضم العثمانيين مصر إلى سلطنتهم قضى على المشروع . ولما عقد الفرنسيون معاهدة الامتيازات مع سليمان القانونى (١٥٣٥) أنشئوا تجارة رسمية فى الشرق الأدنى وأقاموا قنصلاً فى الإسكندرية ثم نقلوه إلى القاهرة (١٦١١) ، ثم رجع إلى الإسكندرية فاراً (١٧٧٧) وأسس الإنجليز الشركة التركية (١٥٨١) ، وبعثوا أول سفير فى بلاط السلطان ، وعينت الشركة قنصلاً لها فى القاهرة (١٥٨٣) ونافستها فرنسا ، فحملتها على استدعائه (١٧٥٦) واتفق الفرنسيون والبنادقة على الإنجليز ، ثم ضموهم إليهما فى مزاحمة الهولنديين واستطاعت شركة الهند أن تبيع الصادرات الشرقية إلى أوربا عن طريق رأس الرجاء الصالح بنحو نصف أثمانها .

وأول من نزل طرابلس بلبنان البنادقة وانتقل إليها قنصلهم من دمشق (١٥٤٥) ، ثم أقبل عليها الفرنسيون فاحتكروا منها تجارة الحرير والسجاد والقطن .

ولما اتخذ فخر الدين الثانى (١٥٩٠ – ١٦٣٥) صيدا عاصمة (١٥٩٣) – ثم مدّت إمارته من طرابلس إلى الناصرة ، واعترف به الباب العالى سيداً على بلاد العرب من حلب حتى حدود مصر (١٦٢٤) – أصبحت أكبر ميناء تجارى فى شرق البحر الأبيض المتوسط واستورد الفلورنسيون – وقد عقد فخر الدين معاهدة مع دوقهم (١٦٠٨) وفر إليهم من الباب العالى (١٦١٣ – ١٦١٨) واستقدم من عندهم المهندسين والخبراء الزراعيين – الحرير والقطن والرماد والقمح .

ثم خلفهم الفرنسيون ، فقدرت تجارتهم مع الشرق الأدنى بأربعة عشر مليون جنيه (١٦٣٥) منها ثمن ٧٠٠ بالة حرير من صيدا وحدها ، وكان بيعها منه فى السنة بمبلغ

٤٠٠,٠٠٠ فلس[٣٥] هذا خلا ماكانت تستبضعه منه من النبيذ والأخشاب وغيرها فأربت أرباحها من سائر سلعه على مليون ليرة فى العام[٣٦] ، مما اقتضاها إقامة قنصلية ، فانتدبت لها أبا نوفل الخازن نائب قنصل فى بيروت (١٦٥٥) ثم قنصلاً (١٦٦٢) واستمر هذا المنصب فى أسرة الخازن نحو مائة سنة ، ثم خلفها الشيخ غندور سعد الخورى (١٧٨٧) وقد خصت أبناء الطوائف المسيحية الشرقية باثنتى عشرة منحة ليتلقوا العلم فى كوليج لوى ليجران (١٧٠٠) .

وأثرت بعض المدن الأوربية والشرق الأدنى وشمالى أفريقيا بفضل هذه التجارة العالمية ، وجمع المماليك من مواردها أموالاً طائلة بنوا بها أكثر المساجد والمدارس والمستشفيات .

(ب) فى الهند :

منذ أن عاد ماركو بولو (١٢٥٤ – ١٣٢٣) مع عمه وأبيه من الصين (١٢٩٥) بثروة طائلة من الأحجار الكريمة فتحت أوربا عيونها على ثراء الشرق الأقصى . وعلى أثر النهضة العلمية اكتشف برتلميو دياز رأس الرجاء الصالح وأبحر منه إلى الهند (١٤٨٦) وقصد كولمبس الإيطالى – وكان يعمل لحساب إسبانيا – الهند (١٤٩٢) ، وأرسل ملك البرتغال فاسكو دى جاما فى أربع سفن فدار بحراً حول رأس الرجاء الصالح . وعندما بلغ مدغشقر تعرف بأحمد بن ماجد – مصنف كتاب الفوائد فى علم البحر والقواعد – فهداه إلى مجاهل المحيط الهندى[٣٧] ومارست سفنه فى مياه كلكتا (١٤٩٨) حتى وقعت الكارثة الكبرى :

لقد أحسن ملك مليبار وفادته وحمله رسالة إلى ملك البرتغال جاء فيها :

زار مملكتى فاسكو دى جاما ، وهو شريف من كرام أسرتكم ، فسررت بزيارته سروراً عظيماً وإن فى مملكتى لوفرة من القرفة والقرنفل والفلفل والمرجان والنسيج القرمزى .

فكان جواب ملك البرتغال مطالبة الهند بمستعمرة لتجارته ونشر دينه ، عن طريق أسطول عقد لواءه لفاسكو دى جاما (١٤٩٩) فنال الامتيازات ، وثان عقد لكبرال فاكتشف البرازيل فى طريقه (١٥٠٠) وثبت أقدام البرتغاليين فى كلكتا ، وثالث عقد لدى المايدا (١٥٠٥) فانبثوا واستولوا على جوا (١٥١٠) – ثم نالت فرنسا مثل امتيازاتهم (١٥٣٥)

---

(٣٥) Ristelhuebert, Traditions trançaises au Liban, p. 270.

(٣٦) ماسون ، تاريخ التجارة الفرنسية فى الشرق .

(٣٧) J. de Barros, Da Asia Décade 1, livre IV, ch. VI (1778).

وإنجلترا (١٥٨٠) وهولندا (١٦١٢) ثم غيرها من البلدان الأوربية – وعظمت تجارتهم من الهند فكانت الرحلة التى تتكلف ٤٠٠٠ جنيه بما فيها ثمن السفينه تباع حمولتها وحدها بمبلغ ١٥٠٠٠ جنيه .

ولكن البرتغاليين لم يقنعوا بذلك الثراء العريض ففتحوا مالقة وجزيرة هرمز على مدخل الخليج العربى ، وبسطوا نفوذهم على عدن ومصوع وقرآن ، وجابوا البحر الأحمر ؛ واستولوا على سفن مصر والبندقية . واستغاث ملك مليبار – وقد اشتهر فى مصر وأفريقيا ولبنان وجزيرة العرب باسم التاجر – وتجار المسلمين باثنين من ملوك الهند وبمصر ، فأنذر السلطان الغورى البابا بتخريب الأماكن النصرانية المقدسة إن لم يوقف البرتغاليين عند حدهم ، ثم جهز حملة بحرية بمعاونة البنادقة فانتصرت على البرتغاليين ، ثم انهزمت أمامهم فى وقعة قرب ديو (١٥٠٩) فسيطروا على المحيط الهندى ، ومن بعد على بحر الصين ، حوالى قرن ونصف القرن يكسبون خلالها فى كل سنة من الهند مليوناً ونصف مليون دينوك ذهباً يبعثون بثلثها إلى لشبونة فأثرت ثراء فاحشاً ، وازدهرت بلدان شواطئ المحيط الأطلسى والهندى ، فى حين ركدت ثغور البحرين الأبيض المتوسط والأحمر . وكان لركودها أسوأ الأثر فى حياة الشرق الأدنى السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وأحسن أثر فى النهضة الأوربية ، حتى آثرها بعض المؤرخين على المخطوطات الإغريقية التى حملها البيزنطيون من القسطنطينية إلى أوربا الغربية .

ومهد الانقلاب التجارى فى أيام كولمبس إلى انقلاب صناعى يسر لأوربا إنتاج سلع أتقن وأرخص وأوفر ، ولما عجزت عن تصريفها فيها جدت فى البحث عن أسواق لها فى العالم ، وجابت بعثاتها الشرق لاستخراج كنوزه .

وهكذا تأسست شركة الهند الشرقية فى لندن (١٥٩٥) وشركة الهند الشرقية فى هولندا (١٦٠٢) وتعاونتا فيما بينهما ، فظهرت أول سفينة إنجليزية فى البصرة (١٦٣٥) وحل الهولنديون – وقد تحرروا من إسبانيا – محل البرتغاليين فى بمباى (١٦٦٥) .

وفى تلك السنة تأسست شركة الملاحة الشرقية فى باريس (١٦٦٥) وبسط الفرنسيون حمايتهم على الهند (١٧٤٠) ثم لحق الإنجليز بهم إليها وأجلوهم بعد معارك عنها فأثرت شركة الهند الشرقية منها ؛ إذ صارت تبيع ما يكلفها مليونى ريال بعشرة ملايين حتى بلغ ثمن السهم فيها ٣٢ ألف ريال ، ثم أقامت مستعمرة بريطانية فى الهند (١٦٨٦) ، وأنشأت مراكز تجارية فى مدراس وكلكتا وبمباى ، وحصنتها ووفرت لها جنداً خاضت بهم المعارك ورشت وارتشت حتى أفقرت الهنود ، فثاروا (١٨٥٧) ، وقعت إنجلترا ثورتهم ، وحلت محل شركة الهند

مستعمرة للتاج . ثم حاربت فى الهند – وقد ضمت بورما إلى أملاك التاج (١٨٨٦) – مائة وإحدى عشرة حرباً حتى تم لها فتحها ، فنشرت ثقافتها بين الطبقة المتعلمة باستضافة مئات الطلاب فى جامعتها خلا الآلاف الذين قصدوا جامعات أوربا وأمريكا ، فعادوا يترجمون الفنون والآداب والعلوم الغربية إلى اللغات الهندية . ويحيون التراث الهندى بما فيه الإسلامى بمعاونة المستشرقين عن طريق إنشاء الجامعات والمكتبات والمتاحف والمطابع والمجلات والجمعيات ، فرتب وحقق وترجم وصنف فيه واستعاد تأثيره الأول .

لقد كان أثر الفكر الهندى فى ثقافات الأمم الأخرى شديداً فى عهود ضعفها أو انهيارها أو نهضتها : فقال أفلاطون بتناسخ الأرواح ، واستسلم زينون الصيداوى للقضاء والقدر ، ووردت الأفلاطونية الحديثة من مناهل الهند . ونقل إلى العربية الكثير من مصنفاتها حتى إذا سقطت رومة وعطلت غزوات المغول الطرق البرية بين أوربا والهند تعثر تبادل الفكر بين الشرق والغرب خلال مئات الأعوام إلى قيام الاستشراق ، فاستعادت الهند تأثيرها فى كبار فلاسفة الغرب . فتصور فخته مذهباً مثالياً على غرار مثال شانكارا ، وأوشك شوبنهور أن يدخل فى فلسفته مذاهب البوذية واليوباتشاد والفيدانتا ، وانتهى شلنج إلى القول بأن اليوباتشاد أنضج حكمة بلغها الإنسان ، والتزم نيتشه مذهب التقمص حتى وفاته ، واعترف العالم بطاغور وغاندى وإقبال الذين مزجوا بين الثقافتين الشرقية والغربية .

(جـ) فى الحبشة :

وجمع الإمام أحمد بن إبراهيم أمير هرر الأمراء المسلمين حوله ، واستعان بالعثمانيين المطلة مراكزهم على البحر الأحمر ، وعقد معاهده مع البندقية ثم غزا الحبشة (١٥٢٩) ، وحاول إمبراطورها لبنادنجل رده ، فهزم هزيمة منكرة ودخل الإمام أحمد مدينة أكسوم فامتنعت عليه ، فأحرقها وحمل نفائس كنائسها وارسل بأسراها فبيعوا رقيقاً فى الأسواق .

وفى مطلع عام ١٥٤٠ اجتاحت جيوش الإمام الحبشة كلها ، وقضى إمبراطورها الطريد نحبه ، فرأى خليفته الإمبراطور جلوديوس الاستعانة بالبرتغاليين فأمدوه بأربعمائة وخمسين جندياً على رأسهم القائد كريستوفر دا جاما (١٥٤٢) ولئن هزموا فى الوقعة الأولى وأسر قائدهم لقد أوقعوا الهزيمة بجيوش الإمام وشجعهم النصر على اختراق جيوشه وإصابته بجرح مميت . ولما عاد الإمبراطور إلى قصره (١٥٤٥) رأى مكافأة البرتغاليين على حسن صنيعهم بتحويل الحبشة من المذهب الأرثوذكسى إلى المذهب الكاثوليكى . وكانت بعثة برتغالية قد وصلت الحبشة فى أثناء

غيبته برئاسة رودريجز ومعها راهبان يسوعيان يحملان رسالة من سلطان الهند لضم الحبشه إلى المذهب الكاثوليكى ، ففعل ثم ارتد عنه . ولما أرسل الأب إبراهيم جورجى – وكان مارونيًا من حلب تعلم فى رومة ، وانضم إلى الرهبانية اليسوعية ، وكلف بخدمة نصارى السريان فى مليبار – إلى مصوع قتل عام ١٥٩٥ .

(د) فى الصين :

وبلغ البرتغاليون بمدافع سفنهم كانتون (١٥١٧) ، فتلقتهم تلقى القرصان سجناً وتقتيلا ؛ حتى إذا ساعدوا للصين على قراصنة آخرين كافأتهم بأن منحتهم حق استيطان مكاو وحكمها وتشييد مصانع كبيرة للأفيون عليها واستخدام الأهلين فيها ، فعاد أحدها عليهم بربح قدره ١,٥٦٠,٠٠٠ دولار فى السنة .

وبعد أن فتح الإسبان جزائر الفلبين (١٥٧١) استقروا فى جزيرة فرموزة ثم خلفهم الهولنديون . واستولوا على جاوة (١٥٩٥) – وكان المسلمون قد دخلوها من مالقة (١٤٧٩) وتوسعوا فى نشر الإسلام فيها بإصهارهم إلى أمراء الثغور المجاورة ، وأقدم الآثار الإسلامية قبر فاطمة بنت ميمون (المتوفاة عام ١٠٨٣) – وأنشأ الهولنديون مدينة بتافيا (١٦١٩) وشركة الهند الشرقية الهولندية للتجارة . ثم أقبلت خمس سفن إنجليزية (١٦٣٧) على كانتون ، وأسكتت بمدافعها المدافع التى قاومتها ، وأنزلت فى المدينة بضائعها ، ولكنها أثارت العقبات فى وجهها بإرسال الأفيون إلى الصين ، ولما أوفدت إلى الإمبراطور شين لونغ (١٧٣٧ – ١٧٩٦) بعثة برئاسة اللورد مكارتنى لعقد معاهدة تجارية معه رد عليها بخطاب إلى الملك جورج الثالث جاء فيه : وخليق بك أيها الملك أن تحترم شعورى هذا ، وأن تكون فى المستقبل أكثر إخلاصاً وولاء مما كنت فى الماضى حتى يكون خضوعك الدائم للعرش من أسباب استمتاع بلادك بالسلام والرخاء فى مستقبل الأيام !

وفى مطلع القرن الثامن عشر بدأ استيراد الأفيون من الهند إلى الصين فحرمته حكومتها مراراً وأمرت المستوردين الأجانب (١٨٣٨) فى كانتون بتسليم ما فى مخازنهم منه ، فلما أبوا حاصرت أحياءهم ، واستولت على عشرين ألف صندوق عنوة ، فانسحب البريطانيون إلى هنغ كنغ حيث أطلقوا مدافعهم على مدنها ، فصالحتهم الصين على التخلى عن هنغ كنغ وفتح خمسة ثغور للتجارة الأجنبية وامتيازات عديدة .

وطلبت عدة دول أخرى ، منها فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية – تطبيق تلك

الامتيازات على رعاياها وتجارها فأجيبت إلى طلبها ، ولما تمادت فيها وأبتها الصين عليها فتح البريطانيون والفرنسيون كانتون وأملوا على الصين معاهدة شجعت دولاً كثيرة فاستولت روسيا على الأراضى إلى شمال نهر عامور وشرق نهر الأوسرى (١٨٦٠) ، واستقطعت فرنسا الهند الصينية (١٨٨٥) واغتصبت اليابان فرموزه (١٨٩٤) ، وحررت كوريا لتستولى عليها (١٩١٠) ، وفازت ألمانيا بشبه جزيرة شانتنغ (١٨٩٨) ، واحتلت الولايات المتحدة الأمريكية جزر الفلبين (١٨٩٨) .

وفى عام ١٩٠٠ قام الملاكمون الصينيون بذبح المسيحيين بمن فيهم الراهبات والأطفال ، فزحفت الجيوش المتحالفة على بكين لحماية رعاياها وأعملت فى المدينة السلب والنهب والقتل ، وفرضت عليها غرامة حربية قدرها ٣٣٠ مليون دولار ، ثم رفعتها معظم الدول عنها لقاء تعليم الطلبة الصينيين فى جامعاتها . ورجع طلبة الغرامة من إنجلترا والولايات المتحدة واليابان إلى الصين بالجديد من العلوم والآداب والفنون ، فأذاعوها فيها بفضل المعونة التى لقوها من الحكومات والمنظمات والأفراد لإنشاء الكليات – كهبة جون ، و ، روكفلر الصغير وقدرها خمسةن ملايين دولار لكلية الطب (١٩٣٢) – والمستشفيات والمعامل ، خلا المنح الدراسية العديدة لتلقى العلم فى الغرب .

١٤ – العودة إلى الشرق الأدنى :

لما أجلت إنجلترا فرنسا عن الهند قررت فرنسا تجديد الطريق القديم المار بمصر لكى تفسد على غريمتها تجارتها المارة برأس الرجاء الصالح ، فأخذ عمال فرنسا وتجارها فى مصر يلحون على حكومتهم للاستيلاء على مصر ، إلا أنها قنعت منها بعقد معاهدات مع البكوات والمماليك ضمنت لها تيسير نقل تجارتها عن طريق مصر ، وأدرك جورج بولدوين أحد أعضاء شركة الهند الشرقية الاتجاه السياسى لتلك المعاهدات ، فحمل حكومته على عقد مثلها مع البكوات والمماليك .

وفى أواخر القرن الثامن عشر تطور الموقف السياسى تطوراً سريعاً وخطيراً :

فقد قامت الثورة الفرنسية ، ونشبت الحرب بين إنجلترا وفرنسا الجمهورية (١٧٩٣) ، وكتب نابليون إلى تاليران (١٧٩٧) يقول : لن نلبث طويلاً حتى نشعر باضطرارنا إلى احتلال مصر لتحطيم إنجلترا . وكانت انتصارات نابليون على إيطاليا قد مكنت له فى الأرض وأطمعته فى الشرق موطن الفتوح العظيمة ، وزينت له إقامة دولة شرقية أكبر على ضفاف النيل ينعم

بخيراتها ، ويضرب منها إنجلترا الضربة القاصمة .

وهكذا بلغت حملة نابليون مصر (تموز – يوليو ١٧٩٨) وكان الإنجليز على علم بأغراضها ، فأسرعوا إلى تحطيم أسطولها فى خليج أبى قير (آب – أغسطس ١٧٩٨) وحصار سواحل مصر الشمالية حصاراً قطع الاتصال بين مصر وفرنسا ، وتأليب العثمانيين عليها ، والإسهام فى إخراجها حتى جلت عن مصر (أواخر عام ١٨٠١) ثم تعاقبت الأحداث وقد سجلها التاريخ الحديث .

obeikandl.com